القضبان الجليدية

• هل انتهت حياة (أدهم صبرى) فى معتقل (سيبيريا) ، وانتهى عمله فى المخابرات المصرية ؟

• لماذا حاول (أدهم صبرى) الفرار ، بعد أن كان قد استسلم تمامًا لقدره ؟

• ترى .. أيحسم (أدهم صبرى) فى الهرب ، واختراق قضبان (سيبيريا) الجليدية ؟

• اقرأ التفاصيل المثيرة .. لترى كيف يعمل (رجل المستحيل) .

العدد القادم : لهيب الثلج

المؤلف

د. نبيل فاروق

رجل المستحيل









رجل المستحيل ● القضبان الجليدية ● ٤٥ ● المؤسسة العربية الحديثة بالقاهرة

روايات مصرية للجيب

رجل المستحيل

القضبان الجليدية

(٤٥)

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

لقد أجمع الكل على أنه من المستحيل أن يجيد رجل واحد فى سن (أدهم صبرى) كل هذه المهارات .. ولكن (أدهم صبرى) حقق هذا المستحيل ، واستحق عن جدارة ذلك اللقب الذى أطلقته عليه إدارة المخابرات العامة لقب (رجل المستحيل) .

د. نبيل فاروق

١ ـــ وجاء الربيع ..

وقف مدير المخابرات العامة المصرية ، يتطلَّع من خلف نافذة مكتبه الزجاجية الكبيرة ، إلى ساحة مبنى المخابرات ، التى بدت هادئة ، لا توحِى بذلك الخِضَمّ من النشاط ، الذى تمُوج به إدارة المخابرات العامة ، وتركَّز بصره فى شرود ، على عصفور صغير ، انهمك فى بناء عشه ، فوق غصن شجرة قريبة ، وسط جوّ الربيع الجميل فى مصر ..

كانت الأزهار قد تفتحت فى كل مكان ، وبدا الطقس مثيرًا للبهجة ، إلَّا أن ملامح مدير المخابرات لم تكن توحِى إلَّا بالحزن ، والشرود ..

لم يتحرَّك من وقفته الثابتة ، ولم تفقد عيناه شرودهما ، عندما دخل المقدَّم (حازم عبد الله) إلى حجرته ، وتنحنح لينبِّهه إلى وجوده ، فاكتفى مدير المخابرات بأن قال فى هدوء :

ـــ هل من جديد يا (حازم) ؟

أجابه (حازم) :

ـــ كل رجالنا فى (موسكو) يعملون جاهدين ، منذ ثلاثة شهور كاملة ، دون أن يُضيفوا معلومة جديدة عن اختفاء (أدهم صبرى)(*) .

غمغم مدير المخابرات :

ـــ ثلاثة شهور كاملة !!

أطرق (حازم) فى أسف ، وقال :

ـــ يبدو أننا فقدنا (رجل المستحيل) يا سيِّدى .

غمغم مدير المخابرات :

ـــ والنقيب (منى توفيق) أيضًا يا (حازم) .

تنهَّد (حازم) ، وقال :

ـــ مصرع (منى) مؤكد يا سيِّدى .. فلقد رآهـــا العشرات مضرجة فى دمائها ، وسط ثلوج (موسكو) ، ولقد سقطت من الطابق الثانى و ....

قاطعه مدير المخابرات فى حنق :

ـــ ولكننى أشعر أن (أدهم) مازال على قيد الحياة .

ساد الصمت لحظة ، ثم قال (حازم) فى بطء :

(*) راجع الجزء الأول من قصة (العين الثالثة) .. المغامرة رقم (٤٤) .

ـــ لو أنه كذلك ، فسيعنى هذا أنه فى مكان ، هو قبر من الثلج ، والموت أفضل من الحياة فيه .

عقد مدير المخابرات حاجبيه ، وغمغم فى قلق :

ـــ هل تعنى ...؟

لم يتم عبارته ، ربما لهول الفكرة ، ولكن (حازم) تابع قائلًا :

ـــ نعم يا سيِّدى .. فى معتقل .. (سيبريا) ، أكثر معتقلات العالم هَوْلًا .

ساد صمت ثقيل بينهما ، بعد هذا التصريح المخيف ، ثم غمغم مدير المخابرات فى توتُّر :

ـــ لو أنهم أرسلوا (أدهم) إلى هناك ، فكل ما أتمنَّاه له هو الموت .

* * *



٢ ــ حيث لا تشرق الشمس ..

المكان : (سيبريا) ..(*) .

الزمان : الحادى والعشرون من مارس ، والمعروف فى العالم أجمع باسم (عيد الربيع) ..

الرجل : شاب فى النصف الثانى من الثلاثينات ، طويل القامة ، مفتول العضلات ، أبيض البشرة ، ازداد جسمه نحولًا ، عن مظهره فى يناير السابق ، وبرزت عظام وجهه ، لتخفى الكثير من وسامته السابقة ، على حين ترك شعره الأسود الناعم ينسدل على جبهته بلا نظام ، ونمت لحيته ، على نحو يوحي بأنه لا يحلقها إلا كل عشرة أيام على الأقل ، وبدت ثيابه رثة ، متهالكة ، على الرغم من برودة الجوّ من حوله .

---

* (سيبريا) : الاسم الشائع لمعظم الجزء الآسيوى من (روسيا) [١٢٧٥٣٤١٩ كم²] ، وتمتد من جبال الأورال حتى المحيط الهادى ، ومن المحيط القطبى حتى مغوليا ومنشوريا ، بها حوض الفحم الشهير (كوزنتسك) ، وبحيرة (بيكال) ، وشبه جزيرة (تشكوتشى) .

المؤلف

المهنة : ضابط سابق بالمخابرات العامة المصرية ، يدعى (أدهم صبرى) ، كان يعرف قديمًا بلقب (رجل المستحيل) ..

لم يعُد (أدهم صبرى) كما عرفناه سابقًا ..

لم تعُد تطلّ من عينيه تلك النظرة المتألقة ، التى تفيض حماسة ونشاطًا ..

أصبح رجلًا آخر ..

رجلًا استسلم لمصير أسود مظلم ، فى أكثر المعتقلات هَوْلًا ..

فى هذه اللحظة ، التى تبدأ فيها قصتنا ، كان يستند بظهره إلى جذع شجرة قديمة ، وهو يحمل بين راحتيه وعاءً من الخزف القديم ، يحتوى على حساء له رائحة نفّاذة مقزّزة ، وإلى جواره استقرَّ رغيف من خبز كاد سواده يطغى على بياضه ..

كان يتناول وجبة الطعام اليومية ، بعد عمل يوم كامل ..

اقترب منه رجل بالغ النُّحول ، وجلس إلى جواره ، وقال وهو يقضم قطعة من الخبز ، ويلوكها فى فمه بلا شهية :

ــ هل يعجبك مصيرنا هذا يا ضابط المخابرات المصرى ؟

بدا جواب (أدهم) باردًا كالثلج ، وهو يقول :



كان يستند بظهره إلى جذع شجرة قديمة ، وهو يحمل بين راحتيه وعاءً من الخزف القديم يحتوى على حساء له رائحة نفاذة ..

ــ هذا قدرنا .

ظهر الغضب على وجه الرجل الآخر ، وقال فى حَنَق :

ــ قدرنا ؟!.. لقد جلبت أنت هذا المصير ، بإصرارك على مطاردتى إلى (موسكو) .

ارتسمت ابتسامة شاحبة على شفتى (أدهم) ، وأغلق عينيه ، وهو يستعيد كل ماحدث منذ أسندت إليه المخابرات المصرية مهمة إعادة (أندريه جريج) ، جاسوس منظمة (سكوربيون) ، من (موسكو) إلى القاهرة ..

لقد بدت المهمة شاقة منذ البداية ، فقد وصل وزميلته السابقة (منى توفيق) إلى (موسكو) ، فى الأيام الأخيرة من ديسمبر ، حيث تنخفض درجـــة البرودة إلى ثلاثين تحت الصفر ، وحاولا إعادة (أندريه) ، ولكن (ياكوف) ، مدير مكتب مكافحة التجسُّس السوفيتى ، كشف أمرهما بمحض الصُّدفة ، وبدأ يضيق الخناق حولهما ، وحول (أندريه جريج) أيضًا ..

تذكَّر (أدهم) كيف أعَدّ لهما (ياكوف) فخًا ، بمعاونة (أندريه) ، الذى كان يحاول الإفلات ، بمعاونة السلطات السوفيتية ..

تسلّل حزن عميق إلى قلبه ، حينما استعادت ذاكرته موافقة (منى) على الزواج منه ، ثم مصرعها فى ذلك الفخّ ، برصاص الجنود السوفيت ، واعتقاله ، ونفيه إلى (سيبيريا) ..

ثلاثة شهور مضت ، وهو مستسلم تمامًا لمصيره ، وكأنه يعاقب نفسه على استمراره فى أداء المهمة ، بعد أن وصله الأمر بإيقافها من القاهرة ..

كان يَعُدُّ نفسه مسئولًا عن مصرع (منى) ، بعد أن لقيت حتفها فى غمرة عناده ، وإصراره على الفوز فى مهمة ملغاة ..

وهاهو ذا الآن ، وبعد ثلاثة شهور ، يجلس جنبًا إلى جنب ، مع نفس الجاسوس ، الذى كان يهدف إلى استعادته ..

لم يعُد هناك فارق ...

أفاق من ذكرياته على صوت (أندريه جريج) ، وهو يقول فى حَنَق بالغ :

ـــ نعم .. أنت المسئول عن كل هذا العذاب ، الذى نلاقيه هنا ..

أشاح (أدهم) بوجهه فى برود ، على حين استطرد (أندريه) ، فى غضب :

ـــ أنت وعنادك السخيف .. أنت وصديقتك الحمقاء .

عند هذه النقطة ، وعندما ذكر (أندريه) (منى) ، ونعتها بالحماقة ، ارتفعت قبضة (أدهم) فى سرعة ، وهوَت على أنف

(أندريه) ، الذى ترنّح ، وانسكب وعاء الحساء البارد من يده وتساقطت من أنفه بضع قطرات من الدم ، وهتف فى ألم :

ـــ يالك من وحش !! لقد حطّمت أنفى !!

انفصل أحد المعتقلين عن رفاقه ، وأسرع إلى حيث يجلس (أدهم) و (أندريه) ، وأسرع يفحص أنف هذا الأخير ..

من العبث أن نقول إن هذا الرجل الثالث كان نحيلًا ، فكل نزلاء معتقل سيبيريا يتميّزون بالنُّحول الشديد ، باستثناء هؤلاء الذين وصلوا توًّا .. ولكن الرجل كان أشد نحولًا من المعدل الطبيعى ، وكان يرتدى بقايا منظار طبّى ، عدّله فوق أنفه وهو يقول :

ـــ اطمئن يا رفيقى .. سنضع بعض الثلوج على الجرح و ....

قاطعه (أندريه) فى حَنَق :

ـــ ابعد أيها الطبيب الفاشل .

تراجع الطبيب المسكين فى صغار ، على حين سأله (أدهم) بالروسية :

ـــ أنت طبيب حقًّا ؟

نظر إليه الرجل فى حذر ، وغمغم :

ـــ عجبًا .. إنك تتحدث الروسية بإتقان شديد ، لماذا يقولون إنك ضابط مخابرات مصرى إذن ؟

ابتسم (أدهم) فى شحوب ، وقال :

— دَعْهم يقولون ما يحلُو لهم يا صديقى .

هزَّ الرجل رأسه فى حَيْرة ، وغمغم :

— نعم أنا طبيب حقيقى ، ولقد كنت واحدًا من أشهر الجراحين فى مستشفى (موسكو) ، ولكننى نقلت إلى هنا ، حيث لا تشرق الشمس ، يوم السابع من يناير الماضى .

غمغم (أدهم) ، وهو يسند رأسه إلى جذع الشجرة :

— منذ ثلاثة أشهر وواحد وعشرين يومًا إذن .

تطلَّع إليه الرجل فى دهشة ، وقال :

— لست أدرى كيف أمكنك إحصاء المدة، ولكن هذا صحيح.

عاد (أدهم) يسأله :

— وهل يعتقل السوفيت أطباءهم الآن ؟

مطَّ الطبيب شفتيه فى أسًى ، وقال :

— هذا لا يحدث فى العادة ، ولكنهم اعتقلونى بسبب عملية جراحية ناجحة ، كنت أتصوَّر أننى سأحصل على وسام الجدارة بعدها .

عقد (أدهم) حاجبيه ، وسأله فى حَيْرة :

— عملية جراحية ؟!

أومأ الرجل برأسه إيجابًا ، وقال :

— نعم يا صديقى .. عملية جراحية ، أنقـذت بها

بمعجزة ، فتاة مصرية ، تلقَّت تسع عشرة طلقة نارية فى جسدها ، عشيَّة عيد الميلاد و ....

بتر الطبيب عبارته فجأة ، وهو يرتجف ، فقد تألَّق فى عينى (أدهم) بريق عجيب ، واشتعلت ملامحه كلها ، وهو يقفز إلى الطبيب ، صائحًا فى انفعال عجيب :

— فتاة مصرية ؟!.. عشيَّة عيد الميلاد ؟!.. ما اسمها يا رجل ؟

تراجع الطبيب النحيل فى ذُعر ، وهتف :

— لستُ أدرى .. أقسم لك .

هتف (أدهم) ، وقد ازداد تألُّق عينيه ، وبلغ انفعاله ذروته :

— صِفْ إصاباتها إذن ، وأخبرنى ما آل إليه أمرها .

ازدرد الطبيب لعابه فى جزع ، وقال :

— لقد أصيبت — كما أخبرتك — بتسع عشرة طلقة نارية ، وسقطت من الدور الثانى ، و ....

تهدَّج صوتُ (أدهم) وهو يقاطعه :

— هل شفيت ؟!.. أعنى ألم تفارق الحياة ؟

عدَّل الطبيب وضع منظاره الطبِّى المتهالك ، وقال :

— المفروض أنها كذلك .. فلقد اعتقلتني السلطات بعد أن استعادت وعيها و ....

عاد (أدهم) يقاطعه :

— لماذا اعتقلتك السلطات ؟

تلفّت الطبيب حوله في قلق ، ثم همس :

— يبدو أنهم كانوا يريدون الاحتفاظ بأمر الفتاة سرًّا .. فقد اعتقلوا كل فريق العلاج و ....

قاطعته تنهيدة عميقة من أعماق (أدهم) هذه المرّة ..

عادت فورة الحماس والقوة إلى نفس (رجل المستحيل) ، فور معرفته بنجاة (منى) ..

ولكن هذه المعرفة أعادت إليه صلابته ، وعناده السابق ..

وأضاء أمامه هدف ، نما في عروقه بسرعة عجيبة ..

كان على (رجل المستحيل) أن يقهر المُحـــال مرّة أخرى ..

كان عليه أن ينقذ من القضبان الجليدية ..

من (سيبريا) .

* * *

٣ — المستحيل ..

أشعل الرفيق (إيفانوف) واحدة من سجائره السوفيتية ، ذات الرائحة النفّاذة ، وأخذ ينفث دُخانها في بطء وهدوء ، وهو يتطلّع إلى رفيقه (ياكوف) ، الذي انهمك في مطالعة بعض تقارير التصنُّت ، ثم لم يلبث أن سأله :

— ألمْ تُدلِ الفتاة المصرية بأقوالها بعد ، أيها الرفيق الجنرال ؟

رفع (ياكوف) عينيه إليه ، وأزاح التقارير جانبًا ، وقال في صوت يشفّ عن ضيقه :

— إنها لم تستعد ذاكرتها بعد أيها الرفيق ، هذا ما يقوله أطباء الإدارة .

عاد (إيفانوف) ينفث دُخانَ سيجارته في بطء ، وقال :

— لقد قاربت الشهور الأربعة .

أومأ (ياكوف) برأسه موافقًا ، وقال :

— هذا صحيح .. ولكننا حتى الآن لانعرف من هي .. وما سبب قدومها إلى هُنا .

عقد (إيفانوف) حاجبيه ، وغمغم :

ــ ربما كانت تتظاهر بذلك .

هزَّ (ياكوف) رأسه نفيًا ، وقال :

ــ لا .. ولكن الصدمة النفسية التى تعرَّضت لها ، وإصاباتها البالغة ، محت من عقلها كل ما يتعلَّق بالحادث .

عاد (إيفانوف) يسحب أنفاس سيجارته ، وسط الصمت الذى ساد بينهما لحظة ، والذى قطعه هو قائلاً :

ــ ولكن لماذا أخفيت خبر شفائها أيها الرفيق الجنرال ؟

صمت (ياكوف) ، وشرد ببصره بعيدًا ، وكأنه يستعيد ذكرى قديمة ، ثم عاد ينظر إلى (إيفانوف) ، قائلاً :

ــ من الأفضل أن تؤمن المخابرات المصرية بمصرعها ، وبمصرع زميلها الشيطان ، حتى لا تبدأ مفاوضات السياسيين لاستعادتهما ، قبل أن نستكمل معلوماتنا منهما .

ابتسم (إيفانوف) ، وقال :

ــ وهل تعتقد أن زميلها سيُدلى بما لديه ؟

ابتسم (ياكوف) بدوره ، وهو يهز رأسه نفيًا ، ثم قال :

ــ إنه أكثر صلابة من أن يفعل .. ولقد تصوَّرت فى البداية أنه سيعمد إلى محاولة الهرب من (سيبيريا) ، ولكن يبدو أنه استسلم تمامًا لقدره هناك .

ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتى (إيفانوف) ، وقال :

ــ الهرب من (سيبيريا) ؟!.. لابُدَّ أن يكون مجنونًا تمامًا ، حتى تخطر هذه الفكرة الحمقاء برأسه .

ابتسم (ياكوف) ، وقال :

ــ كل المعتقلين هناك تراودهم هذه الفكرة فى البداية ، ثم تنهار مع كل يوم يمرُّ بهم .. إن (سيبيريا) هى مقبرة أعداء النظام يا رفيقى .. إنها النهاية لهم .

* * *

استيقظ (أندريه جريج) على هزَّات خفيفة لكتفه ، وهو يرقد وسط عشرة من المعتقلين ، فى زنزانته الباردة .. ولم يكد يفتح عينيه ، حتى ارتجف جسده ، وندت من حلقه شهقة دهشة ، وهو يتطلَّع فى الضوء الخافت ، إلى الرجل الذى أيقظه ، واعتدل جالسًا ، وهو يهتف فى صوت خافت :

ــ كيف وصلت إلى هنا ؟!.. كيف تجاوزت كل هؤلاء الحرَّاس ؟

أجابه (أدهم صبرى) فى هدوء ، لا يخلو من السخرية :

ــ لقد استغرقوا فى النوم ، بعد مجهود اليوم الشاق .. صدِّقنى إنهم سجناء مثلنا .

ظلَّ (أندريه) يتطلّع إليه فى دهشة ، ثم سأله فى همس :

ـــ وماذا تريد منّى ؟

أجابه (أدهم) فى هدوء :

ـــ سترافقنى فى رحلة الهروب من هنا .

اتسعت عينا (أندريه) عن آخرهما ، وهتف فى ذهول :

ـــ أرافقك ؟!.. هل بلَغ بك الجنون .... ؟

قاطعه (أدهم) بإشارة من يده ، وعاد يقول فى حزم ، وعيناه تتألقان فى صرامة :

ـــ سترافقنى أيها الوغد ، فسأعود بك إلى القاهرة ، سواء رضيت أم أبيت .

هتف (أندريه) فى صوت خافت حانق :

ـــ إلى القاهرة ؟!.. هل تظن أنك ستغادر هذه القضبان الجليدية هكذا ؟.. هل تعلم ماذا سنواجه إذا ما حاولنا الهرب ؟

أجابه (أدهم) فى برود :

ـــ سنواجه أهوالًا لا حصر لها ، ولكنها أفضل بكثير من هذه الحياة التى نحياها هنا .

عقد (أندريه) حاجبيه ، وقال فى صرامة :

ـــ لن أرافقك ، فأنا لا أتعجّل الموت .

بدا صوت (أدهم) كالفولاذ البارد ، وهو يقول فى صرامة :

ـــ إننى لا أمنحك حق الاختيار أيها الوغد .. سترافقنى أو أقتلك هنا .

ارتجف جسد (أندريه) ، وبدت الحَيْرة والذُّعر فى كل لمحة من وجهه ، ثم لم يلبث أن غمغم فى حَنَق :

ـــ ومتى تفكّر فى الفرار ؟

أجابه (أدهم) فى هدوء :

ـــ الليلة .

صرخ الذهول فى وجه (أندريه) ، واحتبس صوته وهو يحدّق فى وجه (أدهم) ، ثم لم يلبث أن قال بصوت متحشرج :

ـــ أنت تسعى للمستحيل أيها الشيطان المصرى .. هل تسمعنى ؟.. المستحيل !!

* * *

تململ الجنرال (بودنسكى) فى فراشه بقلق هذه الليلة ، فعلى الرغم من أنه قائد معسكر الاعتقال فى (سيبيريا) ، وعلى الرغم من كل المميّزات التى يتمتع بها بحكم منصبه ، كالمسكن الأنيق المكيَّف الهواء ، والفراش الدافئ الوثير ، والطعام الشهى ، والشراب المنعش اللذيذ ، إلّا أنه كان يشعر دومًا أنه سجين فى

المعتقل ، فهو لا يحصل إلّا على خمسة أيام فقط كإجازة كل شهرين ، حتى أن ارتباطه بأسرته بات ضعيفًا واهيًا ..

كان يعانى فى هذه الليلة أرقًا شديدًا ، وحنقًا غصَّ به حلقه ، فنهض من فراشه ، وأشعل إحدى سجائره ، وأخذ ينفث دخانها فى ظلام الحجرة ..

وفجأة .. خُيِّل إليه أن تيارًا باردًا قد صبَّ على ظهره ، من نافذة حجرته ، فاستدار إليها فى دهشة .. ولم يكد يفعل ، حتى تثلَّجت أطرافه ، وسقطت سيجارته من بين شفتيه ، وسقطت فكُّه السفلى ، وهو يتطلَّع فى ذهول إلى شبح رجل طويل القامة ، وقف هادئًا ، عاقدًا ساعديه أمام صدره ، وقد أخفى ظلام الحجرة ملامحه تمامًا ..

هتف الجنرال (بودسكى) بصوت مبحوح مضطرب ، فشل فى صَبْغه بالصرامة اللازمة :

— من هنا ؟

اقترب منه الشبح فى بطء وهو يقول بالروسية :

— الرفيق (ياكوف) ، من إدارة مكافحة التجسُّس أيها الرفيق الجنرال .

ازداد اتساع عينا (بودسكى) ، وهو يغمغم :

— (ياكوف) ؟!.. كيف وصلت إلى هنا ؟ وكيف ..

بتر عبارته فجأة ، عندما وقع بصره على وجه الرجل ، الذى سقطت فوقه بقعة صغيرة من الضوء ، وتصلَّبت كفّ (بودسكى) على مسند مقعده ، وهو يهتف فى ذُعر :

— إنك لست ....

قبل أن يتم عبارته ، هوَت على فكّه لكمة ذات بأس ، ألقته من فوق مقعده ، وحاول هو أن ينهض بجسده البدين ، ولكن الرجل انحنى فوقه ، وقال فى لهجة ساخرة :

— هل تعرَّفتنى أيها الرفيق الجنرال ؟

شىء ما فى عينى (أدهم صبرى) ، اللتين تجمعان بين الصرامة والسخرية ، أثار رجفة فى جسد الجنرال السوفيتى البدين ..

لقد عرف ملامح (أدهم) فورًا ، وتذكَّر ما قصَّه عليه (ياكوف) من قدراته الشيطانية .. أضف إلى ذلك حالة الذهول والمفاجأة ، اللتين انتاباه ، حينما رأى (أدهم) فى حجرته الخاصة .. كل هذا جعله يشعر بخوف عميق ، وهو يغمغم :

— ماذا تريد أيها المصرى ؟

سأله (أدهم) فى هدوء :

— كلمة سرِّ الليل .



قبل أن يتم عبارته ، هوت على فكه لكمة ذات بأس ، ألقته من فوق مقعده ..

قال (بودسكى) فى عناد :

ــ لن تعرفها ولو قتلتنى .

ازدادت ابتسامة (أدهم) سخرية ، وأحاط عنق الجنرال البدين براحتيه ، ثم ضغطه فى قوة ، وهو يقول فى هدوء :

ــ هل تقترح ذلك ؟

جحظت عينا الجنرال (بودسكى) ، وهو يحاول المقاومة ، ولكن ساق (أدهم) كانتا تمنعان ذراعيه من الحركة ، وكفّى (أدهم) يضغطان عنقه فى قوة ، حتى كاد يلفظ أنفاسه الأخيرة ، فغمغم فى صوت مختنق متحشرج :

ــ حسنًا .. سأخبرك .

خفّف (أدهم) من ضغط كفّيه لحظة ، وسأل الجنرال فى هدوء :

ــ ما هى ؟

أجابه الجنرال ، وهو يملأ صدره بالهواء :

ــ إنها (جليد) ..

اتسعت ابتسامة (أدهم) ، وهو يقول :

ــ شكرًا أيها الرفيق الجنرال .. هذا كل ما أحتاج إليه منك .

ثم هوت قبضته فى قوة على فكّ (بودسكى) ، فأرسلته فى نوم عميق .

* * *

٤ ـــ الجليد ينهمر ..

لم يدر الجنرال (بودسكي) كم مرَّ عليه من الوقت في غيبوبته ، ولكنه حينما فتح عينيه ، وجد نفسه مقيَّدًا في قوة فوق فراشه ، ومكمَّم الفم ، وحاول عبثًا التخلُّص من قيوده ، ولكنه فشل ، وبينما كان يحاول ، سمع صوتًا ساخرًا يقول :

ـــ هل استعدت وعيك أيها الرفيق الجنرال ؟

استدار (بودسكي) إلى مصدر الصوت في ذهول ..

لم تكن الكلمات هي مبعث ذهوله ، ولكنه الصوت ذاته ..

لقد خُيِّل إليه أنه يستمع إلى صوته هو نفسه ..

وتطلَّع في ذهول إلى الرجل الواقف أمام مرآة حجرته ، يعدِّل من وضع قبعته الرسمية فوق رأسه ..

لوهلة ظن أنه يتطلَّع إلى نفسه ، بجسده البدين ، ووجهه المنتفخ ، وحُلَّته الرسمية ، التي تحمل عددًا لا بأس به من الأوسمة ، ولكنه لم يلبث أن انتبه إلى اختلاف ملامح الرجل الواقف أمام المرآة ، عن ملامحه هو ..

اختلاف طفيف ، لا يكاد يكون ملحوظًا وسط ضوء الحجرة الخافت ..

حاول أن يهتف في دهشة ، ولكن الكمامة فوق فمه منعته من ذلك ، ورأى (أدهم) يستدير إليه ، قائلًا في هدوء :

ـــ لقد استعرت كل وسادات فراشك ، حتى يمكنني ملء حُلَّتك الواسعة ، أيها الرفيق الجنرال .. ولقد تعبت كثيرًا ، في الحصول على ما يلزم لتنكُّري ، حتى أنني اضطررت لاستخدام بعض زجاجات الفودكا ، والموقد ، وكل ماهو مصنوع من البلاستيك في حجرتك و .....

ثم بتر عبارته ، وابتسم وهو يتابع في تهكُّم :

ـــ سيفهم رجال الـ (كي . جي . بي)(*) . بسرعة أيها الرفيق الجنرال .. فهكذا نعمل جميعًا ، حينما نفتقر إلى أدوات التنكُّر التقليدية .

عاد الجنرال (بودسكي) يحاول عبثًا التخلُّص من قيوده ، على حين أردف (أدهم) في هدوء :

(*) الـ (كي . جي . بي) : المخابرات السوفيتية .

— والآن .. وداعًا أيها الرفيق الجنرال .. فلا أظن أننا سنلتقى مرّة أخرى ، فإما أن أنجح فى اجتياز قضبانكــم الجليدية ، أو أنتقل إلى عالم بلا قضبان .

بدا هادئًا ، على عكس ما تحمله كلماته من معان ، ثم أردف وهو يستدير إلى باب الحجرة :

— وداعًا يا جنرال .

وفى هدوء وثقة ، فتح (أدهم) باب حجرة الجنرال (بودسكى) ، الذى سمع صوت أقدام جنديّى الحراسة ، وهى ترتطم بالأرض احترامًا ، قبل أن يغلق (أدهم) باب الحجرة خلفه .

* * *

انتصب جنديا الحراسة فى احترام ، فور رؤيتهما (أدهم) فى ثوب قائدهما ، وقال أحدهما فى اهتمام :

— هل نصحبك أيها الرفيق الجنرال ؟

أجابه (أدهم) ، مقلّدًا صوت الجنرال ، فى براعة منقطعة النظير :

— لا سأقوم بجولة فى المعسكر فحسب .

ثم ابتعد فى خطوات سريعة عن الحارسين ، اللذين تبادلا

نظرات الدهشة ، إزاء هذا التصرُّف غير المفهوم ، الذى أقدم عليه الجنرال لأول مرّة .. أمّا (أدهم) ، فقد هبط إلى أرض المعسكر ، وهو يخفى وجهه بياقتى معطفه ، كما لو كان يتّقى البرد ، ويسدل قبعته الرسمية على نصف وجهه العلوى .. واتّجه من فوره إلى حجرات المعتقلين ، ولم يكد جنود الحراسة الأربعة يلمحون الجسد البدين ، والأوسمة التى تغطّى صدر الحُلّة الرسمية ، حتى ضربت أقدامهم الأرض فى قوة ، وارتفعت أسلحتهم إلى صدورهم ، عدا أحدهم ، الذى صوّب سلاحه إلى صاحب الجسد البدين ، وصاح بما تقتضيه الأوامر :

— كلمة سرّ الليل ؟!

واصل (أدهم) تقدُّمه ، وهو يقول فى ثقة وصرامة ، مقلّدًا صوت الجنرال (بودسكى) :

— (جليد) .. أفسحوا الطريق .

ولكن أحدًا من الجنود الأربعة لم يتحرّك قيد أنمُلة ، بل توتّرت أصابعهم فوق مقابض أسلحتهم ، وانعقدت حواجبهم ، وهم يحدّقون فى وجه (أدهم) ، ثم تحرّكت أيديهم بسرعة ، لتتّجه فوّهات مدافعهم الرشّاشة إليه ، وهتف أحدهم :

— خطأ .. أنت لست الرفيق الجنرال (بوديسكى) .

* * *

في اللحظة التي تبدلت فيها ملامح الجنود الأربعة ، أدرك (أدهم) أن الجنرال (بودسكي) قد خدعه .. ومع آخر حروف كلمات الجندي الأخير ، استعاد (أدهم) قدرته على القتال الخاطف ..

وفجأة .. انقض على الجنود الأربعة كالصاعقة ..

سقط الجندي الأول محطَّم الفكّ ، وهوَى الثاني بأنف مهشَّم ، في حين فقد الثالث وعيه إثر لكمة صاعقة ، وتحاشى الرابع ركلة من قدم (أدهم) ، ولكنه لم ينجح في الإفلات من لكمة أصابت فكّه بسرعة البرق ، فلحق بزملائه الثلاثة .

تحرَّك (أدهم) في سرعة وخفَّة ، فنقل الجنود الأربعة إلى ركن مظلم ، ثم التقط مدفع أحدهم الرشاش ، وساعده اتساع سترة الجنرال ، على إخفاء المدفع الرشاش في طيّات ثيابه ، ثم أسرع يهبط إلى حيث زنزانات المعتقلين ..

كان هناك ثلاثة جنود يحرسون الممّر ، الذي انتشرت فيه الزنزانات ، ولقد هبُّوا جميعًا في احترام ، حينما وقع بصرهم عليه ، وعقد هو كفّيه خلف ظهره ، واقترب من أحدهم ، وقال في صرامة ، وكأنه يختبره :

— كلمة سِرّ الليل .

— (ثلوج) أيها الرفيق الجنرال .

مطَّ (أدهم) شفتيه ، وتظاهر بالغضب وهو يقول :

— ليس من المفروض أن تخبرني بها أيها الرفيق الجندي ، بل من المفروض أن تسألني أنت عنها .

شحب وجه الجندي ، وهو يغمغم في خوف :

— هذا صحيح أيها الرفيق الجنرال .. لقد أخطأت .

هتف (أدهم) في سخط مفتعل :

— أخطأت ؟!.. لقد ارتكبت جريمة أيها الرفيق الجندي .

امتقعت وجوه الجنود الثلاثة ، وهم يتوقَّعون عقابًا صارمًا ، ولكن (أدهم) نصب قامته ، وقال في صرامة :

— أحضروا لي المعتقل (أندريه جريج) من الزنزانة رقم تسعين .

أسرع الجنود يحضرون (أندريه) ، الذي اتسعت عيناه ذهولًا ، حينما تعرَّف (أدهم) ، في حُلَّة الجنرال (بودسكي) ، ولكنه لاذ بالصمت ، ووقف إلى جواره منكَّس الرأس ، في حين قال (أدهم) :

— سأصحبه معي .

أجاب أحد الجنود ، وهو يشكر مَقْدِم (أندريه) ، الذي أنسَى الجنرال خطأه :

ــ كما تشاء أيها الرفيق الجنرال .

تحرّك (أدهم) في غطرسة إلى الخارج ، وهو يقول :

ــ اتبعني أيها المعتقل .

تبعه (أندريه) في حذر .. ولم يكد يشعر بابتعاده عن الحرّاس الثلاثة ، حتى همس في توتُّر ...

ــ كيف أمكنك ....؟

قاطعه (أدهم) في صرامة :

ــ الزم الصمت .

ثم أردف في برود :

ــ سنجد أربعة جنود فاقدي الوعي في الخارج ، انتق ثوب أقربهم حجمًا لك ، وارتده ، فسنغادر هذا المكان الكئيب على الفور

* * *

تحرّكت بقع الضوء الكاشفة في أرجاء معسكر الاعتقال ، على نسق ثابت ، وتركّزت إحداها فوق (أدهم) ، (وأندريه) الذي يتبعه في خطوات مرتبكة ، مرتديًا زِيّ أحد الجنود السوفيت ، ثم تبعتهما البقعة الضوئية ، وهما يتحرّكان نحو بوّابة المعسكر ، وكأن الجندي المكلّف بها يحاول التأكد من شخصية

الجنرال وتابعه ، أو كأن الدهشة تساوره ، بسبب خروج قائد المعسكر في مثل هذا الوقت من الليل ، حتى أن (أندريه) غمغم في توتُّر وحنق :

ــ يبدو أنهم قد كشفوا أمرنا .

ابتسم (أدهم) في سخرية ، وقال :

ــ صَهْ أيها الغبيّ .. إنه نوع من الاحترام للقائد .. إنهم يضيئون له الطريق .

غمغم (أندريه) في حنق :

ــ ومن يدريك ؟.. ربما كانوا يضيئون الهدف ، قبل أن يطلقوا عليه النار .

قال (أدهم) في صرامة :

ــ الزم الصمت أيها الوغد .

أطبق (أندريه) شفتيه ، وأخذ يهمهم بكلمات ساخطة ، على حين تقدَّم (أدهم) من حارسيّ بوابة المعسكر ، اللذين هتفا في آن واحد :

ــ قِفْ .. كلمة سرّ الليل .

أطلق (أدهم) من بين شفتيه زمجرة غاضبة ، مقلّدًا أسلوب الجنرال (بودسكى) ، وقال في لهجة بدت للجنـــدين ساخطة :

— (ثلوج) أيها الغبيّان .. ألا تعرفان قائدكما ؟

انتصب الجنديان فى احترام ، وإن لم تخف ملامحهما دهشتهما من رغبة قائدهما فى الخروج فى مثل هذا الوقت من الليل ، وأشاح (أدهم) عنهما بوجهه ، وهو يقول فى زمجرة ساخطة :

— أين سائق السيارة اللّعين ؟

أسرع أحد الجنديين يستدعى السائق ، الذى جاء مهرولًا ، مقاومًا نُعاسَه ، وهو يتساءل بدوره عن سرّ رغبة القائد فى الخروج .. ولكنه أدار محرّك السيارة ، وأخذ يتثاءب داخلها وهو ينتظر سخونة المحرّك ، دون أن يدرى أن درجة حرارة (أندريه جريج) ، قد اقتربت من درجة الاشتعال ، وأنه تحت أول ضغط مباشر سينهار ، أو يسقط كل شىء كالجليد الهش .

* * *

٥ — وبدأت المطاردة ..

وقف حارسا حجرة القائد يتناقشان ، حول الأسباب التى دعت قائدهم لمغادرة حجرته ، لأول مرّة ، بعد منتصف الليل .. وفجأة .. بتر أحدهما عبارة هامسة ، وعقد حاجبيه وهو يقول فى قلق :

— استمع أيها الرفيق .. هناك جلبة ما تصدر من حجرة القائد .

أنصت رفيقه فى اهتمام ، ثم غمغم فى توتُّر :

— هذا صحيح .. ولكن من يجرؤ على ....

قاطعه زميله بإشارة من يده ، وهمس فى انفعال :

— فلنؤجل السؤال لما بعد أيها الرفيق ، أما الآن فدعنا نفاجئ هذا المقتحم .

دفع الجنديان باب حجرة القائد ، واندفعا إلى الداخل ، شاهرين سلاحيهما ، ولكن أقدامهما تصلّبت فى ذهول ، حينما رأيا قائدهما ، الذى رأياه يغادرهما منذ لحظات ، مقيدًا مكمّمًا فوق فراشه ، يقاوم وثاقه فى شراسة ..

لم يدم ذهول الجنديين أكثر من دقيقة ، اندفعا بعدها يحلّان وثاق قائدهما ، الذى صرخ فى غضب :

— أطلقا الإنذار .. أطلقاه فورًا ، قبل أن يفرّ ذلك المعتقل الشيطان :

وانطلقت صفّارات الإنذار ..

انطلقت قبل أن يركب (أدهم) و (أندريه) سيارة الجنرال (بودسكى) بلحظة واحدة .

* * *

تقول ملفّات المخابرات العامة المصرية عن (أدهم صبرى) ، إنه يحمل بين ضلوعه قلبًا لا تختلّ نبضاته أبدًا ، ولا يرتجف أمام أشد المفاجآت هَوْلًا ..

ولقد كان هذا هو انفعال (أدهم صبرى) حقًا ، حينما ارتفع فجأة صوت صفارات الإنذار ..

لم يكد الصوت يدوّى فى أرجاء المعسكر ، حتى ارتجفت ساقا (أندريه) ، وتهاوى قلبه بين ضلوعه .. ، وعلى العكس تمامًا ، تحرّك (أدهم) فى سرعة مذهلة ، فأطاح بمدفعى حارسى البوّابة ، بركلتين فى آن واحد ، ثم هوَى على فكّيهما بقبضتيه ، فأزاحهما من طريقه ، واندفع إلى السيارة ، فانتزع سائقها

المذهول من خلف عجلة القيادة ، وألقى به بعيدًا وهو يقول فى سخرية :

— أنت مفصول أيها الرفيق السائق .

وفى حركة سريعة قوية ، ألقى (أندريه) على المقعد المجاور لمقعد القيادة ، وقفز خلف عجلة القيادة ، وانطلق بالسيارة فى سرعة مذهلة ، مخلّفًا عددًا من رصاصات مدافع الحراسة ، أذابت الجليد ، حيث كانت تقف السيارة ..

صرخ (أندريه) فى رعب ، وهو يحاول اختراق ظلمة الليل ببصره ، داخل السيارة التى انطلقت تشق الثلوج كالصاروخ :

— احترس أيها المجنون .. ستنزلق السيارة فوق الثلج ، بهذه السرعة المذهلة التى تنطلق بها .

لم يجبه (أدهم) بكلمة واحدة ، فقد كان انتباهه كله مركّزًا على الطريق الضيّق ، الذى تبدو معالمه فى صعوبة وسط الظلام ، على الرغم من ضوء السيارة المبهر ، وعاد (أندريه) يصرخ .

— إنك ستقتلنا بهذا الجنون .

أجابه (أدهم) فى برود :

— لو أننا سرنا بسرعة معقولة ، للَحق بنا السوفيت ، وفى هذه الحالة سيصبح الموت أمرًا حتميًّا .

أراد (أندريه) أن يعترض ، ولكن صوت السيارات المطاردة صكّ مسامعه ، وأعاد إلى ذهنه عذاب الأشهر السابقة فى معتقل (سيبيريا) ، فتلاشى اعتراضه ، وصرخ فى توتُّر :

ـــ انطلق بحقّ الشيطان .. ابتعد عن هنا بأقصى سرعة ممكنة.

ولكن (أدهم) كان ينطلق حقًّا بأقصى سرعة ، يمكن أن يمنحها محرك السيارة ..

ولقد أثبت السوفيت أنهم لا يقلّون جرأة ، أو مهارة عن (أدهم) ، فقد كانت سياراتهم المطاردة تنطلق بسرعة مذهلة ، وبجسارة رائعة ، حتى تملَّك الرُّعب من (أندريه) ، فانهار فى مقعده ، وغمغم فى رعب :

ـــ سيلحقون بنا .. لافائدة .. لا فائدة .

* * *

انطلقت حملة المطاردة خلف سيارة (أدهم) فى إصرار ، يتزعَّمها الجنرال (بودسكى) ، الذى يتميَّز غضبًا ، وحنَقًا ، وعنادًا ..

كان حماسه يدفع الجنود للانطلاق بسياراتهم كالمجانين ، على حين أخذ هو يزفر فى غيظ ، حتى سأله ضابط أركان حربه :

ـــ إنه ينطلق بسرعة إضافية مذهلة يا سيِّدى الرفيق الجنرال ، وهو يسبقنا بربع ساعة ، ولا أعتقد أننا سننجح فى اللَّحاق به .

قال (بودسكى) فى حَنَق :

ـــ سيسقط بين أيدينا يا صديقى .. إنه لا يحمل فى سيارته وقودًا إضافيًّا ، بعكسنا ، ثم إن ضوء النهار سيشرق بعد ساعة واحدة ، وعندئذ لن يجد مكانًا يختبئ فيه .

صمت الضابط لحظة ، ثم قال فى تردُّد :

ـــ هل أبلغ السلطات لاسلكيًّا ؟

عقد (بودسكى) حاجبيه ، وهو يتطلَّع إلى بقعة الضوء التى تتحرَّك من بعيد ، مع انطلاق سيارة (أدهم) ، وساد الصمت لحظة ، ثم غمغم :

ـــ يبدو أننا سنضطر إلى ذلك يا (ميخائيلوف) ، فنحن نحتاج إلى بعض طائرات المطاردة .

غمغم (ميخائيلوف) فى دهشة :

ـــ طائرات مطاردة ؟!

أومأ (بودسكى) برأسه إيجابًا ، وابتسم ابتسامة شرسة ، وهو يقول :

— نعم أيها الرفيق .. فما أن يسطع ضوء النهار ، حتى يبدو هذا الشيطان كنقطة سوداء ، تنطلق فوق سطح ناصع البياض .

وانطلقت من بين شفتيه ضحكة عصبيّة ، ثم أردف :

— وهنا ستكون إصابته بالنسبة لطائراتنا ، كإصابة فيل بمدفع بازوكا ، على بعد قدم واحد أيها الرفيق ..

عاد يطلق ضحكته العصبيّة ، قبل أن يستطرد :

— وسترى .

* * *



٦ — النسور والصقر ..

قفز الرفيق (ياكوف) من فراشه ، وصرخ فى ذهول :

— هرب ؟!.. يا لكم من حمقى !! سأضعكم جميعًا فى موضعه ، بل سألقى بكم فى أعماق الجحيم نفسها .

ثم ألقى سمّاعة الهاتف فى غضب هادر ، واندفع يرتدى ثيابه الرسمية ، على حين هتفت به زوجته فى قلق :

— ماذا حدث يا (ياكوف) ؟.. ماذا حدث ؟

زمجر وهو يغمغم فى خشونة :

— ليس هذا من شأنك .

ثم اندفع مغادرًا منزله ، وانطلق بسيارته التى تحمل شعار رجال السلطة إلى مكتبه ، وبعد لحظات لحق به (إيفانوف) ، الذى بادره فى انفعال :

— هل صحيح أن ضابط المخابرات المصرى فرّ من معتقل (سيبيريا) ؟

هتف (ياكوف) فى حنق .

— نعم .. ولقد أصدرت أوامرى بمطاردته بالطائرات ، واعتقاله على الفور .

صاح (إيفانوف) :

— دعهم ينسفونه بصواريخهم أيها الرفيق الجنرال .

كان وجه (ياكوف) محتقنًا من شدة الغضب ، وهو يهز رأسه فى عناد شديد ، ويقول :

— كلَّا أيها الرفيق ، إننى أريده حيًّا ، حتى أسومه العذاب ألوانًا ، هل سمعت .. إننى أريده حيًّا .

* * *

أضاء مصباح الوقود الصغير فى سيارة (أدهم) ، معلنًا قرب نفاد الوقود ، وارتجف جسد (أندريه) ، وهو يتطلَّع إلى الضوء ، الذى بدأ ينتشر فى المنطقة ، وقال :

— لقد أشرقت الشمس ، ونحن لم نعبر ربع (سيبيريا) بعد .

غمغم (أدهم) فى سخرية :

— الشمس ؟!

صاح (أندريه) فى حنق :

— أعنى الضوء ، وسيجعلنا هذا مكشوفين تمامًا ، وربَّما لحق بنا السوفيت .

ألقى (أدهم) نظرة سريعة على خزان الوقود ، ثم عاد يُولِى اهتمامه إلى الطريق ، وهو يقول فى سخرية قاسية :

— يمكنك محو كلمة (ربما) أيها الوغد ، فقد انتهى وقودنا تمامًا .

اتسعت عينا (أندريه) فى رعب ، وهو يقول :

— انتهى الوقود ؟!

لم يكد يتم عبارته حتى توقَّف صوت محرِّك السيارة تمامًا ، وبدأت تنزلق بفعل القصور الذاتى ، حتى توقَّفت تمامًا ، فانتزع (أدهم) المدفع الرشَّاش ، وقفز منها وهو يقول :

— هيَّا أيها الوغد .. سنكمل رحلتنا عَدْوًا .

تطلَّع (أندريه) فى ذهول إلى صحراء الثلج الممتدَّة أمامه ، ثم صرخ فى رعب :

— عَدْوًا ؟!.. إن أمامنا ما يقرب من عشرة آلاف كيلومتر ، حتى نصل إلى (موسكو) !!

تحرَّك (أدهم) دون أن يلتفت إليه ، وهو يقول :

— ابدأ العَدْو إذن أيها الوغد ، فمشوار الألف ميل يبدأ دائمًا بخطوة .

هتف (أندريه) فى جنون ، وهو يشير إلى اتجاه السيارة المطاردة :

ـــ سيلحقون بنا .

لم يكد يتم هذه العبارة ، حتى أشار إليه (أدهم) أن يصمت ، وعقد حاجبيه فى تركيز ، وحينما حاول (أندريه) تقليده ، تسلل إلى مسامعه صوتٌ هدير يتصاعد فى بطء ، ثم أخذت سرعة تصاعده ترتفع ، حتى تحوَّل إلى ضجيج مرتفع ، وهنا هتف (أدهم) :

ـــ يا إلهى !! النُسور !!

صرخ (أندريه) فى رعب :

ـــ النسور ؟!.. ماذا تعنى ؟

جاء الجواب هذه المرَّة على هيئة ثلاث طائرات مقاتلة سوفيتية ، عَبَرت السماء فجأة ، فوق رأس الرجلين تمامًا .

* * *

تسمَّرت قدما (أندريه) وسط الثلوج ، واتسعت عيناه عن آخرهما فى رعب ، وقد تركَّزتا على الطائرات الثلاث ، التى دارت حول نفسها ، وعادت تنقضّ عليهما ، كنسور تنقضّ على فرخين صغيرين ..

وفجأة .. انطلقت مدافع الطائرات الثلاث ، وانهمرت رصاصاتها حول الرجلين ، قبل أن تعود الطائرات الثلاث إلى الارتفاع مبتعدة ..

كان (أندريه) قد انهار تمامًا ، عندما سمع (أدهم) يغمغم فى اهتمام :

ـــ يا إلهى !! ربما !!

رفع إليه عينيه ، وهتف فى لهفة :

ـــ ربَّما ماذا ؟

لم ينطق (أدهم) بكلمة واحدة ، ولكنه رفع فوَّهة مدفعه الرشاش نحو الطائرات ، التى عادت تنقض من جديد ، وقبل أن تمطرهما مرَّة أخرى برصاصاتها ، انطلق مدفع (أدهم) الرشاش ، وشاهدت عينا (أندريه) المذهولتان إحدى الطائرات الثلاث ، وهى تنفصل عن رفيقتيها ، وتبتعد فى سرعة ، وقد تبعها خيط من الدُّخانِ الأسود الكثيف ، على حين ابتعدت الطائرتان الأخريان ، دون أن تطلقا رصاصة واحدة ، فصرخ فى ذهول :

ـــ يا للشيطان !!.. لقد أصبتها .

غمغم (أدهم) فى سخرية :

ـــ فى الخزَّان تمامًا أيها الوغد .

عاد (أندريه) يصرخ فى رعب :

ـــ الطائرتان الأخريان تعودان ، ستنتقمان منَّا ولا شك .

جاءت رصاصات الطائـــرتين هذه المرَّة أكثر قُربًـــا من الرجلين ، واختلط صوتها بصوت رصاصات مدفع (أدهم) الرشَّاش ، وانفصلت طائرة ثانية ، لتهوى مشتعلة بين الثلوج ، وعاد (أندريه) يهتف فى ذهول :

ـــ يا للشيطان !!

دارت الطائرة الثالثة دورة رأسية عالية ، ثم عادت تنقض على الرجلين فى شراسة ، وكأن قائدها قد قرَّر مخالفة الأوامر الصادرة إليه ، وإطلاق النار على الرجلين مباشرةً ، ولو أننا انتقلنا إلى كابينة الطيَّار ، لوجدناه يهتف فى غضب :

ـــ أرنى ما يمكنك أن تفعله الآن أيها الشيطان .

ثم ضغط زرّ الإطلاق فى عصا القيادة ، وهو يصوِّب مدفعه الرشَّاش إلى صدر (أدهم) تمامًا .

* * *

٧ ـــ رجل لكل العصور ..

لحظة واحدة تفصل الحياة عن الموت ...

جزء من الثانية يتعلَّق به خيط الحياة ، ويتدلَّى منه حبل الموت ..

وفى هذا الجزء من الثانية ، تحرَّك (أدهم صبرى) ..

بحكم خبرته السابقة فى قيادة الطائرات المقاتلة ، كان يعرف جيدًا ذلك الجزء من الثانية ، الذى يطلق فيه الطيَّار النار ، قبل أن يعاود الارتفاع بطائرته ..

وفى اللحظة المناسبة تمامًا .. وبدقَّة متناهية ، تكاد تنافس أجهزة الكمبيوتر ، قفز (أدهم) إلى الأمام ، وتفادى الطلقات النارية ، التى انهمرت حيث كان يقف ، ثم مال جانبًا ، وأطلق رصاصات مدفعه الـــرشَّاش على خزَّان الطائـــرة الثالثـــة والأخيرة ..

وهوَت الطائرة ..

رجل واحد أسقط ثلاث طائرات مقاتلة ، بمدفع رشَّاش واحد ..

رجل واحد حطَّم ثلاثة من نسور الجو السوفيت ..
وكان الرجل مصريًّا خالصًا ..
كان رجلًا لكل العصور ، وبطلًا لكل الأجيال ..
كان (أدهم صبرى) ..
كان (رجل المستحيل) ..

* * *

شحب وجه (ياكوف) ، وهو يستمع إلى محدثه عبر سمَّاعة الهاتف ، ثم وضع السمَّاعة فى بطء ، وتراخى فوق مقعده ، وأشعل سيجارة ، ملأت رائحتها الحجرة بسرعة ، وسأله (إيفانوف) ، وهو يعقد حاجبيه فى قلق :

— ماذا حدث ؟

ظلَّ (ياكوف) يحدِّق فى وجهه برهة فى شرود ، ثم غمغم فى صوت رجل مذهول :

— لقد أسقط ثلاث طائرات مقاتلة .

اعتدل (إيفانوف) فى مقعده بحركة حادَّة ، وسأل فى ذهول :

— من هو الذى حطَّمها ؟

بدا (ياكوف) وكأنه يهمّ بالبكاء ، وهو يقول :

— ذلك الشيطان المصرى .

قفز (إيفانوف) من مقعده ، هاتفًا :

— من ؟!!..

ثم عاد ينهار على مقعده ثانية ، ويهتف غير مصدِّق :

— هل استخدم صواريخ دفاعية ؟ أو ....

هزَّ (ياكوف) رأسه نفيًا فى بطء ، وأجاب :

— بمدفع رشَّاش واحد .

اتسعت عينا (إيفانوف) عن آخرهما ، وتدلَّت فكُّه السفلى فى ذهول ، وهو يغمغم :

— هذا مستحيل !! مستحيل !!

وفجأة .. ضرب (ياكوف) سطح مكتبه فى قوة ، وصاح :

— سنواجهه بكل قوانا .. إن (روسيا) التى هزمت (نابليون) و (هتلر) ، لن تعجز عن قنص رجل مخابرات مصرى واحد ، فى أعماق (سيبيريا) .

ثم التقط سمَّاعة الهاتف ، وطلب رقمًا فى انفعال .. ولم يكد يسمع صوت محدِّثه ، حتى قال فى صرامة تختلط بغضبه :

— أرسل خمس مقاتلات ، لمطاردة هذا الشيطان المصرى .

ومُرْهُم بقذفه بالصواريخ فور رؤيته ، وأطلق خلفه عشر دبابات ، واجعل هدف الجميع هو تدميره .. تدميره دون سابق إنذار .

* * *

وقف (أندريه) دقيقة كاملة ، يحدّق فى وجه (أدهم) بذهول شديد ، ثم غمغم فى صوت يشفّ عن دهشته البالغة :

ـــ لقد أسقطتها !!.. لقد فعلت بحقّ الشيطان !

فحص (أدهم) مدفعه الرشّاش فى سرعة ، ومهارة ، ثم أجاب فى هدوء :

ـــ سيرسلون عشرات غيرها ، وسيلحق بنا فريق المطاردة بعد دقائق .

عاد (أندريه) يهتف ، وكأنه لم يسمع عبارة (أدهم) :

ـــ كان من الممكن أن تلقى مصرعك .

ابتسم (أدهم) فى سخرية ، وقال :

ـــ لو أنهم يريدون قتلنا لفعلوا من الهجوم الأول يا رجل .. لقد كانوا يريدون إجبارنا على الاستسلام فحسب ، ولقد استغللت أنا ذلك جيّدًا .

تلفّت (أندريه) حوله فى توتّر ، ثم صاح فى خوف :

ـــ أين نذهب الآن ؟.. لا يوجد مكان واحد يمكننا أن نختفى فيه .

بدت ابتسامة (أدهم) عجيبة فى عينى (أندريه) ، وأدهشه أن أزاح (أدهم) طرفى معطفه السميك ، وانتزع من تحت سترته وسادات حجرة (بودسكى) ، التى استغلّها ليمنح جسده هذا الحجم الزائد ، وقال وهو يمزّق أغطيتها البيضاء :

ـــ هذا ما قد يبدو لك أيها الوغد .

صاح (أندريه) فى قلق :

ـــ ماذا ستفعل ؟

ابتسم (أدهم) فى هدوء غامض ، وغمغم :

ـــ سترى أيها الوغد .. سترى .

* * *

توقّفت حملة المطاردة ، التى يقودها الجنرال (بودسكى) ، إلى جوار سيارة (أدهم) المعطّلة ، وعقد الجنرال حاجبيه وهو يمسح المنطقة ببصره ، ثم قال فى حنق :

ـــ أين ذهب هذا الشيطان ؟.. إنه يبدو كما لو كان قد ذاب وسط الجليد .

تطلّع (ميخائيلوف) إلى المنطقة الخالية بدوره ، ثم غمغم فى حَيْرة :

— لاشك أنه ورفيقه لم يبتعدا كثيرًا ، فالأرض فى هذه المنطقة منبسطة ، ولو أنهما ....

بتر عبارته فجأة ، لما شعر فيها من تناقض ، وهزَّ كتفيه وهو يقول فى حَيْرة :

— لست أدرى أين ذهبا ...

ضرب (بودسكى) مقعده بقبضته ، وصاح فى غضب :

— لن يمكنهما الفرار ، إننا ثلاث سيارات ، ولدينا اثنا عشر جنديًا ، سنحيط المنطقة كلها و ....

وفجأة .. بتر عبارته ، حينما انبعث من خلف السيارات الثلاث صوت ساخر ، يقول فى لغة روسية سليمة ، وبلهجة متهكِّمة ، عابثة :

— لن تحتاج إلى كل هذا أيها الرفيق الجنرال ، ها نحن أولاء ..

٨ — شيطان الثلوج ..

استدار (بودسكى) ، و (ميخائيلوف) ، والاثنا عشر جنديًا فى آن واحد ، وفى ذهول شديد إلى مصدر الصوت ، فاصطدمت عيونهم ببريق قوى ينبعث من عينى (أدهم صبرى) ، وهو يصوِّب إليهم فوَّهة مدفعه الرشَّاش ، وقد أخفى ملابسه كلها ، وملابس (أندريه) ، الذى وقف إلى جواره يرتجف ، بأغطية الوسادات البيضاء ..

كان (بودسكى) هو أول من تجاوز أسوار الذهول ، وهتف :

— كنت تختفى وسط الثلوج إذن ؟!

ابتسم (أدهم) فى هدوء ، وقال :

— كان ينبغى أن تدركوا ذلك منذ اللحظة الأولى ، فهذه خدعة سوفيتية محضة . ولقد استخدمها رجال المقاومة السوفيتية ، لإخفاء تسلُّلهم إلى معسكرات الألمان ، فى الحرب العالمية الثانية(*) . فالثلوج تخفى أى جسم أبيض وسطها .

(*) حقيقة واقعية .

هتف (ميخائيلوف) فى غضب :

ــ هل تظن أنك ستهزمنا كلّنا بمدفع رشّاش واحد ؟

ابتسم (أدهم) فى سخرية ، وقال :

ــ لقد فعلت بالفعل أيها الرفيق .

ازداد غضب (ميخائيلوف) ، وهو يقول :

ــ هذا ما تظنه ، إن جنودنا بواسل أيها الشيطان .

ثم استدار إلى رجاله ، وصاح بلهجة آمرة :

ــ أشهروا مدافعكم فى وجهه أيها الرفاق .

ارتفعت فوّهات المدافع الاثنى عشر فى وجه (أدهم صبرى) بحركة آلية ، وارتفع فى المنطقة صوت سيل من الطلقات النارية .

* * *

حينما يقرّر رامٍ محترف إطلاق النار ، فوضع هذا القرار موضع التنفيذ يحتاج منه إلى ثلاثة أعشار من الثانية ..

فى العُشْر الأول يصوّب سلاحه إلى الهدف ، وفى العُشْر الثانى يثبّت السلاح ، وفى العُشْر الثالث يطلق النار ..

هذا ما يحتاج إليه بالضبط رامٍ محترف ، لا مجال للتردُّد فى عمله ..

وبالنسبة إلى رجل مثل (أدهم صبرى) ، لم يكن الاحتراف وحده هو كل قدراته ، وإنما كانت هناك موهبته الخرافية ، فى سرعتى المبادرة والاستجابة ..

ولقد اختصرت هذه الموهبة ثلثى الوقت ..

وفى عُشْر الثانية فقط ، انطلقت رصاصات (أدهم) نحو أهدافها ، وسبق خصومه بعُشْرَيْن من الثانية ..

ولم يكد يتلاشى صوت الرصاصات ، حتى كان الذهول قد أحاط بالجميع ، ما عدا (أدهم) ..

لقد أصابت رصاصاته المدافع الرشّاشة من أيدى الجنود ، دون أن يصاب أى منهم بأدنى أذى .. وكان الأمر يشبه المعجزة ..

لقد تلاشى غضب (ميخائيلوف) دفعة واحدة ، ولقد أقسم فى تقريره ــ فيما بعد ــ أنه لن ينسى هذا المشهد ما بقى من العمر ، ولا عبارة (أدهم) وهو يقول فى هدوء ، محطّمًا حالتى الصمت والذهول :

ــ والآن .. هل توافق على الاستسلام أيها الرفيق ؟

رفع الجنود الاثنا عشر أيديهم إلى أعلى فى استسلام ، دون أن تخطر لأحدهم فكرة المقاومة ، بعد هذا المشهد المذهل ، الذى

رأته عيونهم ، وتبعهم (بودسكى) ، و (ميخايلوف) ، الذى قال فى ذهول :

— إنك لم تترك لنا الخيار أيها الشيطان المصرى .

قال الجنرال (بودسكى) فى لهجة عصبيَّة :

— ماذا ستفعل بنا ؟

ابتسم (أدهم) ابتسامة غامضة ، وقال :

— سيدهشك ما سأفعله أيها الرفيق الجنرال .

* * *

انطلقت سبع طائرات مقاتلة ، تبحث عن (أدهم) و (أندريه) ، فوق ثلوج (سيبريا) ، ولم يطل بحثها ، حتى رأى طيارو المقاتلات قافلة البحث ، وعلى متن إحدى سيارتها الثلاث رجلان ، صوّبت إلى رأسيهما المدافع الرشّاشة ، فأسرع قائد الطائرات السبع يهتف ، عبْر جهاز اللاسلكى المتصّل بخوذته :

— هل ألقيتم القبض عليهما ؟

جاءته الإجابة من فريق البحث :

— لقد فعلنا أيها الرفيق الطيّار .. ونحتاج إلى هليوكوبتر ، لنقلهما إلى الرئاسة فى (موسكو) .

تنهّد الطيّار فى ارتياح ، وقال وهو يقفل راجعًا إلى قاعدته الجويّة :

— ستصلكم الهليوكوبتر بعد دقائق .. لا تبرحوا مكانكم .

ابتعدت الطائرات السبع المقاتلة فى سرعة ، وتابعهم الجنرال (بودسكى) بعينيه فى سخط ، ثم غمغم فى حنق :

— هل تظن أن المطاردة ستنتهى ، بسبب خدعتك هذه أيها المصرى ؟

ابتسم (أدهم) فى هدوء ، وقال :

— لا بالطبع ، ولكن هذا سيمنحنا وسيلة انتقال جوّية ، وكثيرًا من الوقت الإضافى أيها الرفيق الجنرال .

كان (بودسكى) يجلس هذه المرّة فى السيارة الأخيرة ، وإلى جواره نائبه (ميخايلوف) ، وخلفهما جلس (أندريه) منكمشًا ، وإلى جواره (أدهم) ، يصوّب مدفعه الرشاش إلى الجميع ، على حين نزع جنديان ثيابهما الرسمية ، وجلسا فى استسلام ، ورفاقهم يصوّبون إليهم أسلحتهم ، التى انتزع (أدهم) ذخيرتها ، والجميع يخشون الوقوع فى أى خطإ ، قد يدفع (أدهم) إلى إطلاق النار عليهم مرة أخرى ..

كانت هذه هى الصورة الخادعة التى رآها طيارو المقاتلات

السوفيتية السبع ، ولقد أحنق هذا الخداع الجنرال (بودسكى) كثيرًا ، حتى أنه عاد يغمغم من بين أسنانه فى غيظ :

— إنك لن تنجو .

هزّ (أدهم) كتفيه فى لامبالاة ، وقال :

— لست أحب أن أستبق الأحداث ، أيها الرفيق الجنرال .

لاذ الجميع بالصمت بعد عبارة (أدهم) ، وطال صمتهم ، حتى ارتفع صوت الهليوكوبتر الحربية وهى تقترب ، ولم تلبث أن لاحت فى الأفق ، واقتربت من السيارات الثلاث فى سرعة ، ثم هبطت على بعد أمتار قليلة منها .. ولم تكد مراوحها تتوقّف حتى فُتح بابها الجانبى ، واندفع منه عشرة جنود ، أحاطوا بالسيارات الثلاث ، ومدافعهم الرشّاشة مُشهَرة فى وجوه الجميع ، وبدا على بابها الرفيق (ياكوف) ، وهو يبتسم ابتسامة الثعالب ، قائلًا فى هدوء :

— كانت خدعتك مُتقنة أيها الشيطان المصرى ، ولكنك أخطأت خطأً واحدًا ، وسيكون ثمن هذا الخطأ هو حياتك .

* * *

٩ — الثعلب ..

تراجع (أندريه) فى مقعده شاحبًا ، ولوّح بكفّيه أمام وجهه ، وهو يصرخ فى رعب :

— لقد أجبرنى على ذلك .. لقد أجبرنى على مرافقته .

لم يستمع (أدهم) إلى عبارة (أندريه) المرتعدة ....

كانت عيناه تدرسان الموقف ، وعقله يقلّب الأمر على كل الوجوه ..

كان من المستحيل — حتى بالنسبة إليه — أن يتغلّب عليهم جميعًا ، وهم يتخذون هذه المواضع المختلفة ..

لم تكن جسارته وحدها تكفى للنصر هذه المرّة ؛ لذا فقد قرّر (أدهم) أن ينحّى شجاعة الأسود جانبًا ، ويستدعى مكر الثعالب ، ودهاء الذئاب ..

كان على عقله وحده ، أن يسعى للنصر ..

خفض (أدهم) فوّهة مدفعه الرشّاش ، وقال فى هدوء :

— حسنًا .. لقد انتصرت هذه المرّة ، أيها الرفيق (ياكوف) .

اتسعت ابتسامة الظفر على شفتى (ياكوف) ، وأشعل واحدة من سجائره السوفيتية فى تلذذ ، على حين هتف (بودسكى) ، بلهفة رجل انزاح عن صدره حمل ثقيل :

— أخيرًا .

ثم استدار إلى (« أدهم) ، وجذبه من ياقة معطفه ، وقال فى غضب :

— ستدفع الثمن غاليًا أيها الشيطان .

ابتسم (أدهم) فى سخرية ، وقال :

— ليس الآن أيها الرفيق الجنرال ، يراودنى شعور بأننى سأرافق الرفيق (ياكوف) إلى (موسكو) .

صرخ (بودسكى) فى غضب :

— (موسكو) ؟!.. إنك لن ترى إلا ثلوج (سيبيريا) ، حتى تحين لحظتك الأخيرة .. وصدّقنى لقد اقتربت كثيرًا .

كان (ياكوف) قد اقترب كثيرًا ، فى أثناء حوارهما ، حتى بات على قيد خطوات قليلة منهما ، فقال فى هدوء ، وهو يحدج (أدهم) بنظرة متسائلة :

— ولماذا تظن أنك سترافقنى أيها الشيطان المصرى ؟

اعتدل (أدهم) فى جلسته ، ومال نحو (ياكوف) ، وقال فى هدوء :

— لأننى رجل أعترف بالعبقرية أيها الرفيق (ياكوف) ، وأنت تقف الآن موقف المنتصر ؛ لذا فقد قررت أن أخبرك بكل ما لدىّ ، عن طبيعة مهمّتى هنا .

ضاقت عينا (ياكوف) ، وانعقد حاجباه فى حَيْرة ، وهو يحدج (أدهم) بنظرة متشككة ، ثم قال فى صرامة :

— ستخبرنى بكل ما لديك ، عندما نعود إلى معتقل (سيبيريا) .

هزّ (أدهم) رأسه نفيًا فى هدوء ، وقال فى صرامة مماثلة :

— لن تحصل منّى على كلمة واحدة ، إذا ما عدت إلى (سيبيريا) أيها الرفيق .. وأنت تعرفنى ، وينبغى أن تعلم أن ما سأخبرك به سيكون مفاجئًا ، وخطيـرًا وسيهم رؤساءك كثيرًا ، ولكننى أطالبك بالثمن .

ازداد انعقاد حاجبى (ياكوف) ، وهو يغمغم :

— الثمن ؟!

أجابه (أدهم) فى هدوء :

— نعم أيها الرفيق ، والثمن الذى أطلبه هو عودتى ، وهذا

الوغد (أندريه) إلى (موسكو) ، وإيداعنا أى سجن هناك ، بدلًا من هذا المعتقل المميت فى (سيبيريا) .

بدا التفكير على ملامح (ياكوف) ، على حين هتـف (بودسكى) فى غضب :

ـــ محال .. إنها خدعة أيها الرفيق الجنرال .. هذا الرجل شيطان و ....

قاطعه (ياكوف) فى صرامة :

ـــ صَهْ أيها الرفيق (بودسكى) .. ليس من حقّك أن تتكلم ، بعد أن ساعد إهمالك فى عملك على فرار الرجلين ، ولأول مرّة ، من معتقل (سيبيريا) .. ولاتنس أنك لم تحاسب بعد على هذا .

امتقع وجه (بودسكى) ، ولاذ بالصمت فى غضب ، على حين واجه (ياكوف) (أدهم) ، وقال فى هدوء :

ـــ حسنًا أيها المصرى .. ستصحبنى أنت ورفيقك إلى (موسكو) .. ولكننى أحذّرك .. فلو لم تكن معلوماتك بالقيمة التى ذكرتها ، فلن تعود إلى (سيبيريا) ، ولكننى سأودعك قبرًا ، لا يمكن للإنسان أن يفرّ منه أبدًا .

* * *

دارت مراوح الهليوكوبتر ، استعدادًا لارتفاعها عن الأرض ، وجلس (ياكوف) إلى جوار قائدها ، يدخّن سيجارته الثالثة ، على حين جلس خلفه (أدهم) و (أندريه) ، وخلفهما الجنود العشرة ، يصوّبون أسلحتهم إليهما ..

كان (أندريه) يصيح طوال الوقت :

ـــ لقد أجبرونى .. أقسم لكم .

على حين جلس (أدهم) صامتًا ، باسم الثغر فى هدوء وسخرية ، ويداه مكبّلتان خلف ظهره بأغلال حديدية ..

ارتفعت الهليوكوبتر ، وانطلقت نحو (موسكو) ، فى اللحظة التى سأل فيها (أدهم) (ياكوف) فى بساطة :

ـــ كيف عرفت أن الأمر مجرد خدعة أيها الرفيق ؟

ابتسم (ياكوف) فى فخر ، وقال :

ـــ إنهما خطآن فى الواقع .. لقد أجلست الجنرال (بودسكى) فى السيارة الخلفية ، وهذا لا يحدث أبدًا بالنسبة لقائد سوفيتى ، يتزعّم فريقًا للمطاردة .. ثم إنك طلبت هليوكوبتر لنقل المقبوض عليهما إلى الرئاسة فى (موسكو) ، وهذا إجراء عجيب .. فلو أن (بودسكى) ألقى القبض على الفارّين حقًا ، لعاد بهما إلى المعتقل أولًا ، ولن يرسلهما إلى

الرئاسة ، حتى يُطلب منه ذلك رسميًا .. لقد كنت فى طريقى إلى هنا ، حينما أخبرنى قائد المقاتلة بذلك ، وفهمت خدعتك على الفور ، فقابلتك بخدعة مماثلة ، وهكذا كان الأمر .

شعر (أندريه) بدهشة بالغة ، عندما ابتسم (أدهم) فى هدوء ، وقال :

ـــ أنت ثعلب ماكر يا عزيزى (ياكوف) .

ثم أردف فى هدوء أدهش الجميع :

ـــ أخبرنى إذن عندما نصل إلى (موسكو) ، فأنا أحتاج إلى بعض النوم .

قال هذا ، واسترخى فى مقعده بهدوء ، وأغلق عينيه ، وبدا وكأنه قد راح فى نوم عميق .

* * *

مضت ساعة كاملة فى طيران متواصل ، فوق ثلوج لا تنتهى ، و (أندريه) يعجب من استغراق (أدهم) فى مثل هذا النوم العميق ، حتى قال قائد الهليوكوبتر :

ـــ لقد اقتربنا من (موسكو) ، وسنصلها بعد عشر دقائق من الآن .

ثم فتح جهاز الإرسال ، وقال :

ـــ من (نافلوفا ـــ ١٠) إلى القاعدة (موسكو ٣) .. أصل حاملًا الجنرال (ياكوف) ، ومعتقلىْ (سيبريا) .. أطلب الإذن بالهبوط .

ساد الصمت لحظة ، ثم جاء الجواب عَبْر الجهاز :

ـــ من (موسكو ٣) إلى (نافلوفا ـــ ١٠) .. تم التصريح لك بالهبوط .. الطريق مفتوح أمامك إلى (موسكو) .

تمتم الطيَّار بكلمة غير مفهومة ، وأغلق جهاز اللاسلكى .. وفجأة .. قفز (أدهم) على الطيَّار وجذبه إليه وهو يقول فى سخرية :

ـــ هذا ما كنت أنتظره بالضبط يا صديقى .

* * *

١٠ ــ في سماء المعركة ..

ارتفعت الهليوكوبتر بغتة ، عندما جذب الطيّار عصا القيادة على نحو غريزى ، وكأنه يتشبّث بها ، حينما واجهته مفاجأة (أدهم) ، واختل توازن الجنود العشرة ، فسقطوا في أرض الطائرة .. وقبل أن ينهض أحدهم ، انطلقت قبضات (أدهم) وركلاته وسطهم كعاصفة هوجاء ، لا تُبقى ولاتذر .

حاول الطيّار إعادة التوازن للهليوكوبتر ، بعد أن تركه (أدهم) ليواجه الجنود العشرة ..

ونجح في ذلك بصعوبة بالغة ، تنم عن مهارته العالية في القيادة .. ولم تكد الطائرة تستقر حتى انتزع (ياكوف) مسدسه ، واستدار ليطلق النار على (أدهم) ، ولكن هذا الأخير أطاح بالمسدس في ركلة ماهرة ، ثم التقطه ، وصوّبه إلى (ياكوف) وقائد الطائرة ، وقال في سخرية :

ــ فات الوقت أيها الرفيق ، كان ينبغى أن تبادر إلى ذلك فور اختلال توازن الهليوكوبتر .

تطلّع (ياكوف) في ذهول ، يشاركه فيه (أندريه) ، إلى الجنود العشرة ، الذين سقطوا فاقدى الوعى في أرض الطائرة ، ثم عاد يرفع عينيه المذهولتين إلى (أدهم) ، ويغمغم في صوت مختنق :

ــ كيف ؟.. كيف تخلّصت من قيودك ؟

ابتسم (أدهم) في هدوء ، وقال :

ــ إننــى خبير في الإفــلات من القيــود يا عزيــزى (ياكوف) .

ثم استدار إلى قائد الطائرة ، وأردف في صرامة :

ــ اهبط يا صديقى .. سأريحك بعض الوقت من القيادة .

* * *

وقف قائد الطائرة ، و (ياكوف) ، والجنود العشرة فوق الثلوج ، على حافة مدينة (موسكو) يتطلّعون في مزيج من الدهشة والحنق إلى (أدهم) ، الذى ظلّ يصوّب إليهم فوّهة مدفعه الرشّاش ، وهو يدير محرّكات الهليوكوبتر ، وإلى جواره (أندريه) ، الذى يبدو أشد ذهولاً من الجميع ..

بدأت مراوح الهليوكوبتر في الدوران ، عندما هتــف (ياكوف) في غضب :

— ستسقطك المقاتلات السوفيتية .

أطلق (أدهم) ضحكة ساخرة ، وقال :

— هل نسيت أن الهليوكوبتر قد حصلت على إذن بالهبوط ، واختراق أجواء (موسكو) يا عزيزى (ياكوف) ؟.. لقد انتظرت هذه اللحظة بالذات ، قبل أن أبدأ هجومى ، وكان هذا هو هدفى .

قال (ياكوف) فى غيظ :

— لن يمكنك الهبوط فى قاعدة (موسكو ٣) .

أطلق (أدهم) ضحكة ساخرة ، وقال :

— من قال إننى سأفعل يا عزيزى (ياكوف) ؟

ثم ارتفع بالطائرة ، وانطلق مبتعدًا فى مهارة رائعة ، حتى أن الطيّار السوفيتى هتف فى إعجاب ، لم ينتبه إليه :

— يا للرّوعة !!.. إنه يفوقنى مهارةً .

حدَجَه (ياكوف) بنظرة قاسية ، جعلت الدماء تتصاعد إلى وجه الطيّار ، ثم انتزع من جيب معطفه جهازًا صغيرًا ، رفعه إلى فمه ، وضغط أحد أزراره ، وهو يقول فى صرامة :

— إنه يظن نفسه عبقريًا ، ولكننى سأمنحه أكبر مفاجأة فى حياته .

ثم ألصق فمه بجانب الجهاز ، وقال فى لهجة آمرة :

— هنا الرفيق (ياكوف) .. وقعنا ضحيّة خدعة شيطانيـة ، واستولـى جاسوس مصرى على الهليوكوبتـر (نافلوفا — ١٠) .. أرسلوا مقاتلاتكم خلفه ، وأسقطوه دون سابق إنذار .

* * *

صاح (أندريه) ، وهو يرقب السماء فى خوف :

— إلى أين تنوى الذهاب ؟.. هل ستعود إلى (موسكو) حقًّا ؟

أجابه (أدهم) فى هدوء :

— بالطبع .

عقد (أندريه) حاجبيه ، وقال فى حنق :

— يالك من غبىّ !! إننا نمتلك طائرة الآن .. أسرع إلى الحدود الفنلندية .. هيّا .. وسنغادر هذه البلاد الحمراء إلى الأبد .

أجابه (أدهم) فى صرامة :

— سنذهب إلى (موسكو) فقط أيها الوغد .

وفجأة .. شعر (أدهم) بفوّهة مدفع رشّاش باردة تلتصق بجانبه ، وسمع صوت (أندريه) يقول فى عصبيّة :

— قلت لك أننا سنذهب إلى الحدود الفنلندية .. ويمكنك اعتبار هذا اختطافًا .

أطلق (أدهم) ضحكة ساخرة عالية ، وقال فى تهكم لاذع :

— دعْ عنك حماقتك هذه أيها الوغد .. لو أنك أطلقت النار علىّ فستهوى بنا الهليوكوبتر معًا ، ولا أعتقد أنك تفضل مثل هذه الميتة .

قال (أندريه) فى عصبيَّة :

— الموت أفضل من عودتى إلى (موسكو) .

ظهر الضجر على وجه (أدهم) ، وقال فى سأم :

— كُفَّ عن حماقتك هذه أيها الوغد ، والزم الصمت حتى نصل إلى هدفنا .

احتقن وجه (أندريه) ، لهذه اللامبالاة التى يعامله بها (أدهم) ، فصاح فى غضب :

— صدِّقنى يا مستر (أدهم) .. سأقتلك

وفجأة .. مال (أدهم) بالهليوكوبتر جانبًا ، بحيث اختلَّ توازن (أندريه) ، وسقط من فوق مقعده ، وأفلت المدفع الرشَّاش من كفِّه ..

كان (أدهم) يستهدف تلقينه درسًا فحسب ، ولكن ذلك الميل جاء فى موعده تمامًا ..

ففى اللحظة ذاتها ، التى مالت فيها الهليوكوبتر ، عَبَر إلى جوارها تمامًا صاروخ قاتل ، أطلقته طائرة حربية قوية ، وصاح (أدهم) :

— يا إلهى !! لقد كشفوا أمرنا على نحو ، أو آخر .

ثم انحرف بالطائرة فى قوة ، متفاديًا صاروخًا آخر ، وأطلق (أندريه) صرخة فزع ، عندما مرقت مقاتلة سوفيتية إلى جوار الهليوكوبتر ، وهتف فى رعب :

— يا للشيطان !!.. لقد أوقعوا بنا .. سيقتلوننا ..

ومع آخر حروف كلماته ، تحطمت مروحة الهليوكوبتر إلى شظايا صغيرة ، بعد أن أصابها صاروخ أطلقته مقاتلة سوفيتية أخرى ، ودارت الهليوكوبتر حول نفسها فى جنون ، ثم هوت نحو الثلوج ، وصرخ (أندريه) فى رعب هائل :

— إنها النهاية .. إنها النهاية .

* * *



ففى اللحظة ذاتها ، التى مالت فيها الهليوكوبتر ، عبر إلى جوارها تمامًا صاروخ قاتل ، أطلقته طائرة حربية ..

١١ ــ طريق الموت ..

دارت المقاتلات السوفيتية حول الهليوكوبتر ، وهى تهوى وسط غابة كثيفة ، على أطراف (موسكو) ؛ للتأكد من نتائج الهجوم .. ولم تكد تمضى لحظات ، حتى تحطمت الهليوكوبتر على سطح الأشجار ، وتناثرت أجزاؤها فى أرجاء الغابة ، ثم اشتعل خزانها ببقايا الوقود داخله ، وانفجرت فى دوىٍّ شديد .. فقال أحد الطيّارين خلال جهاز اللاسلكى :

ــ نجحت المهمة .. تم تدمير الجاسوس المصرى ، نطلب الإذن بالعودة إلى القاعدة .

قفز (ياكوف) فى سعادة ، حينما التقط جهازه الصغير رسالة الطيّار ، وصاح فى مرح :

ــ لقد انتصرنا يا رفاق .. هزمْنا الشيطان المصرى .

غمغم قائد الهليوكوبتر فى حنق :

ــ وخسرنا طائرتى أيضًا يا سيِّدى الرفيق الجنرال .

لم تخفف هذه العبارة من مرح (ياكوف) ، فأطلق ضحكة متوتِّرة ، وصاح :

— كل شيء يمكن تعويضه أيها الرفيق .. كل شيء .

ثم أردف في حماس :

— ما عدا المجد السوفيتي .

* * *

تأوّه (أندريه) في ألم ، وهو يمسك كاحله الملتوى ، وصاح في ذُعر يختلط بأوجاعه :

— لقد التوى كاحلي .. لقد دفعتني في قسوة ، وألقيت بي من ارتفاع أربعة أمتار كاملة .

غمغم (أدهم) في ضيق ، وهو يفحص ما تبقّى من رصاصات ، في خزانة مدفعه الرشّاش :

— هل كنت تفضل الموت محترقـاً ، وسط حطــام الهليوكوبتر ؟

استعاد ذهن (أندريه) مشهد (أدهم) ، وهو يدفعه خارج الهليوكوبتر ، ثم يقفز خلفه ، في سرعة ..

مبادرة مذهلة ، قبل ثانية واحدة من ارتطام الهليوكوبتر بقمم الأشجار ، فشحب وجهه ، وهو يتصوّر ما كان من الممكن أن يصيبه ، لو لم يفعل (أدهم) ذلك ، ورفع عينيه إليه ، وسأله في حَيْرة :

— لماذا تفعل كل ذلك من أجلي ؟

غمغم (أدهم) في سخرية :

— من أجلك ؟!

ثم أردف في تهكُّم شديد :

— يبدو أنه من الضروري أن تفهم ما يحدث أيها الوغد .. لقد طلبوا في القاهــرة ، وصول البضاعــة سليمــة من (موسكو) .. وكل ما أفعله أنا هو أن أحافظ على الشحنة ، حتى تصل على نحو لائق .

احتقن وجه (أندريه) ، وعاد يتأوّه ، ويشد على كاحله صائحًا :

— لن يمكنني السير .. كاحلي يؤلمني للغاية .

قال (أدهم) وهو يعلّق مدفعه الرشّاش خلف ظهره :

— هيّا يا رجل .. ما هي إلا بضعة كيلومترات ، ونصل إلى قلب (موسكو) .

هتف (أندريه) في سخط :

— بضعة كيلومترات .. من السهل أن تقول هذا ، وأنت سليم معافى .. أما أنا فلن أقدر على السير خطوة واحدة بكاحلي الملتوي هذا .

مال (أدهم) نحوه فجأة .. وهو يقول في صرامة :
ـــ سأحملك .
وفي لحظة واحدة ، كان قد قرن القول بالعمل ، وحمل (أندريه) كالطفل الصغير فوق كتفيه ، فصاح هذا الأخير في غضب :
ـــ مهلاً .. إنك تؤلم ساق .
صاح به (أدهم) بغتة :
ـــ الزم الصمت .
شعر (أندريه) بالخوف ، مع لهجة (أدهم) الصارمة ، فأطبق شفتيه .. ولكن (أدهم) لم يخطُ خطوة واحدة ، بل بدا منتبهًا للغاية ، حتى أن (أندريه) سأله في مزيج من الحَيْرة والقلق ، وبصوت هامس :
ـــ ماذا حدث ؟
مرّت لحظة من الصمت ، قبل أن يجيبه (أدهم) في هدوء :
ـــ يبدو أنهم يبحثون عنّا أيها الوغد ، ويعاونهم في ذلك رهط من كلاب البحث والمطاردة .
تسلّل خوف شديد إلى أعماق (أندريه) ، وأرهف سمعه بدافع الرعب ، فتناهى إلى مسامعه صوت نباح متواصل ..

نباح أثار في أعماقه ذُعر الموت ..

* * *

لم يدر (أندريه) ـــ في غمرة قلقه وخوفه ـــ كم من الوقت ظل (أدهم) واقفًا ، صامتًا ، يستمع في اهتمام شديد إلى صوت الكلاب وهي تقترب .. ولكنه فوجئ به يتحرّك فجأة في خطوات سريعة ، وهو يحمله فوق كتفيه ، ثم تتحوّل خطواته إلى عَدْوٍ ، فهتف في ذُعر :
ـــ رويدك يا سيّد (أدهم) .. إنك تؤلمني .
صاح (أدهم) ، وهو يواصل عَدْوَه في سرعة :
ـــ ألم تسمع أيها الوغد ؟!.. لقد اشتمّت الكلاب رائحتنا ، وها هي ذي تسعى إلينا .
ارتجف جسد (أندريه) ، وهو يقول في رعب :
ـــ هل تعني أن الكلاب تطاردنا ، وأن ....؟
بتر عبارته فجأة ، حينما صك مسامعه صوت نباح قوي قريب ، تفوح معه رائحة الوحشية والدم .. وبرزت فجأة ثلاثة كلاب ضخمة الجثة ، من بين الأشجار ، واندفعت نحو الرجلين ، والزبد يسيل من أشداقها ، فصرخ (أندريه) :
ـــ كلاّ .. كلاّ .

وامتدّت صرخته فى آهة طويلة عميقة ، عندما ألقى به (أدهم) أرضًا ، واستدار يواجه الكلاب الثلاثة ..

واتسعت عينا (أندريه) فى رعب .. حينما رأى الكلاب الثلاثة تقفز نحو (أدهم) ، وتنشب مخالبها فى جسده ..

* * *

كان الإجهاد قد وصل إلى مبلغه فى جسد (أدهم) ، ولكن حماسه كان يفوق تعبه ، ويجبر جسده على العمل الجيّد المتفوّق .. ولقد كان يعلم مدى خطورة وشراسة كلاب المطاردة السوفيتية ، ولكن هذا لم يمنعه من مواجهتها فى شجاعة ، وإن كان هدفه الأول هو عدم إطلاق النار عليها ، حتى لا ينكشف أمره من صوت رصاصاته ..

فى اللحظة التى قفزت فيها الكلاب الثلاثة نحو (أدهم) ، قفز هو أيضًا نحوها ، وفى منتصف الطريق التقى بها ، وأنشبت الكلاب مخالبها فى جسده ، وهوى هو بقبضته على رأس أوّلها وثانيها ، على حين ركل ثالثها فى بطنه بقوة رهيبة ..

عوت الكلاب الثلاثة فى ألم بعد أن هبطت على أقدامها ، وعادت تحاول إعادة تقييم خصمها القوى ، وهى تزوم ، وتزمجر فى غضب ، ثم انقضّ أكثرها شجاعة على (أدهم) ، الذى



فى اللحظة التى قفزت فيها الكلاب الثلاثة نحو (أدهم) ، قفز هو أيضًا نحوها .

عاجله بلكمة صاعقة فى عنقه ، الذى تحطّم فى صوت مسموع ، وسقط الكلب بين رفيقيه ، وندت من حلقه حشرجة أخيرة ، انتفض بعدها انتفاضة قوية ، ثم لفظ أنفاسه الأخيرة ..

زمجر الكلبان الآخران فى وحشيّة ، وأخذا ينقلان بصريهما ما بين (أدهم) ، الذى وقف يبادلهما النظرات فى تحدٍّ ورفيقيهما المجندل أمامهما ، ثم أطلق الكلبان المدرّبان عواءً واحدًا امتزج بعضه ببعض ، واندفعا فجأة ، وفى اتجاهين متضادين نحو (أدهم) ، وقفزا إليه فى وحشيّة ..

امتزج عواء الكلبين وزمجرتهما ، بتلك الصرخة القتالية القوية ، التى انبعثت من فم (أدهم) ، والتى هوَى بعدها بحافة راحته اليمنى ، على مؤخرة عنق أحد الكلبين ، فى نفس اللحظة التى اندفعت فيها قبضته اليسرى إلى أنف الكلب الثانى ..

سقط الكلب الأول صريعًا ، دون أن تبدر منه إلا حشرجة مكتومة ، على حين أطلق الثانى عواءً عاليًا شديدًا ، وتراجع فى ذعر ، وهو يحدّق بعينيه المستديرتين فى وجه (أدهم) ، ثم لم يلبث أن أطلق لقوائمه العنان ، وهو يلوى ذنبه بين قائمتيه الخلفيتين .. فابتسم (أدهم) فى ظفر ، واتجه إلى (أندريه) قائلاً :

— هيّا نواصل طريقنا أيها الوغد .

ولكن شيئًا ما فى نظرات (أندريه) أوقفه ..

رعب شديد فى عينى هذا الأخير ، أثار قلق (أدهم) .

كان (أندريه) يوجّه هذه النظرات إلى نقطة ما خلف (أدهم) ..

واستدار (أدهم) إلى حيث ينظر (أندريه) ، وفى لحظة استدارته ، سمع صوتًا يقول :

— لو لم أشاهد ما حدث بنفسى ما صدّقت حرفًا واحدًا منه .

كان الصوت مألوفًا ، وكذلك كان الوجه ..

لقد كان الرفيق (ياكوف) ، وإلى جواره زميله (إيفانوف) ، وحولهما عدد هائل من الجنود السوفيت .

لقد كانت نهاية طريق الفرار ..

نهاية طريق الموت .

* * *

١٢ — رأس الثعبان ..

نفث (ياكوف) دُخان سيجارته فى توتُّر واضح ، وتبادل نظرة غامضة مع زميله (إيفانوف) ، ثم نظر نظرة باردة طويلة إلى (أدهم) و (أندريه) ، اللَّذين وقف أحدهما رافعًا ذراعيه وسط ذلك العدد الهائل من الجنود ، على حين توسَّد الآخر الأرض شاحب الوجه ، يرتجف ، وهو يمسك كاحله الملتوى ، ويتأوَّه فى مزيج من الألم والرعب ..

نظر (ياكوف) فى عينى (أدهـم) مباشرة ، وقال فى عصبيَّة :

— مِمَّ صنعتك المخابرات المصرية أيها الشيطان ؟

ابتسم (أدهم) ، وقال :

— الله (سبحانه وتعالى) هو الذى خلقنى ، ووهبنى كل ما أملك أيها الرفيق .

تطلَّع إليه (ياكوف) فى شرود ، ثم مطَّ شفتيه ، وقال :

— هل تعلم كم كبَّدتنا من خسائر ؟

أجابه (أدهم) فى هدوء :

— ثلاث طائرات مقاتلة حديثة ، وهليوكوبتر .

عقد (ياكوف) حاجبيه ، وقال فى غضب :

— أضف إلى ذلك (دستة ونصف دستة) من جنود أفقدتهم الوعى ، ومدفعين رشَّاشين ، وكومة من الذخيرة .

ابتسم (أدهم) فى سخرية ، وقال :

— هل تحب أن أدفع ثمنها جميعًا ؟

سيطر (ياكوف) على أعصابه ، وهو يقول :

— من العجيب أنك تمتلك القدرة على المرح فى أحلك الظروف .

ثم اقترب من (أدهم) ، حتى كاد وجهاهما يتلامسان ، وحدَّق فى عينيه مباشرة ، وهو يسأله فى عصبيَّة :

— كيف يمكنك فعل كل هذا ؟.. كيف يمكنك الإفلات من كل هذه المواقف المعقَّدة ؟

هزَّ (أدهم) كتفيه فى لا مبالاة ، وقال فى بساطة :

— لا يوجد موقف بالغ التعقيد يا عزيزى ، كل المواقف تحوى ثغرة واحدة على الأقل .. وكل ما أفعله هو كشف هذه الثغرة واستغلالها .

غمغم (ياكوف) فى حنق :

— هكذا ؟

ثم استدار فى انفعال ، وهو يستطرد :

— لست أدرى كيف أمكنك الإفلات من انفجار الهليوكوبتر .. ولكننى أرفض منطقك هذا عن وجود ثغرة فى أى موقف

ثم عاد يلتفت إليه ، صائحًا :

— الموقف الذى نقفه الآن ، لا يحوى ثغرة واحدة .

أطلق (أدهم) ضحكة تهكمية ، مثيرة للأعصاب ، وقال :

— هذا ما تظنه ، يا عزيزى الرفيق الجنرال .

عقد (ياكوف) حاجبيه فى غضب ، وقال :

— أنت تدعى وجود ثغرة هنا إذن..

ثم أطلق ضحكة عصبية ، وأردف :

— يقتلنى الفضول لمعرفتها أيها الشيطان .. فرجالى يحيطون بك ، كما يحيط الثعبان الضخم بفريسته ، قبل أن يعتصرها ، ويحطم ضلوعها .

ازدادت ابتسامة (أدهم) سخرية ، وهو يقول فى هدوء :

— هذه هى الثغرة يا عزيزى .

بدت الدهشة على وجه (ياكوف) ، وقال فى عصبية :

— ماذا تعنى ؟

صاح (إيفانوف) ، وهو ينظر إلى (أدهم) فى شك :

— حذار أيها الرفيق الجنرال ، إنه يتلاعب بك .

استدار إليه (ياكوف) فى حدة ، وصاح فى غضب :

— اصمت يا (إيفانوف) .

ثم عاد يستدير إلى (أدهم) ، ويسأله فى عصبية زائدة :

— هيا أيها الشيطان المصرى ، أخبرنى بما تعنيه .

ابتسم (أدهم) فى هدوء ، وقال :

— على الرغم من ضخامة الثعبان ، وشراسته ، إلا أنه كائن ضعيف .. يكفى تحطيم رأسه لشل عضلاته كلها دفعة واحدة .

ظهرت الحيرة ، مقترنة بالغضب فى وجه (ياكوف) ، وهو يقول :

— ماذا يعنيه حديثك هذا ؟

وفجأة .. وفى أقل من نصف الثانية .. قفز (أدهم) نحو (ياكوف) ، واختطف مسدسه من جيب معطفه ، ثم أحاط عنقه بذراعه ، وألصق المسدس بجبينه ، وقال فى سخرية :

— هذا هو ما يعنيه حديثى ياعزيزى الرفيق .

* * *

تسمَّر الجنود جميعهم فى مواضعهم ، وتصلَّبت أصابعهم على أزناد مدافعهم الرشاشة ، وظهر مزيج من الحَيْرة والقلق فى ملامحهم ، على حين جحظت عينا (ياكوف) ، من ضغط ذراع (أدهم) القوية ، وصاح (إيڤانوف) فى غضب :

— دَعْهُ أو نطلق النار عليك أيها المصرى .

أجابه (أدهم) فى سخرية ، وهو يجذب (ياكوف) من عنقه ، إلى نقطة آمنة :

— حاول ، وستقتل رئيسك المباشر أيها الرفيق (إيڤانوف) .. وأراهنك أنك ستقضى نصف عمرك فى تحقيقات إدارية بهذا الشأن .

عقد (إيڤانوف) حاجبيه ، وقال فى حِدّة :

— بل ربما أنال وسامًا ، لمنعى جاسوسًا من الهرب .

صاح (ياكوف) بصوت مختنق :

— صَهْ يا (إيڤانوف) .. افعل ما يطلبه ذلك الشيطان ، وسنجد فرصة أخرى للإيقاع به بعد ذلك .

ظلَّ (إيڤانوف) عاقدًا حاجبيه ، وتصارعت فى رأسه أفكار شتَّى ..

إنه لا يدرى كيف سيكون شعور المسئولين ، لو أنه تسبَّب فى مقتل رجل له وزنه فى الحزب الحاكم ، مثل الرفيق (ياكوف) ..

حاول أن يزن الأمر ، بمقارنة مصرع (ياكوف) بالقبض على (أدهم) ، ولكن ذهنه المنفعل المشوَّش ، عجز عن اتخاذ قرار حكيم ..

ولم يمنحه (أدهم) الفرصة ، بل عاد يهتف بالروسية :

— ألقوا سلاحكم أيها الجنود ، حتى لا تصبحوا مسئولين عن مصرع زعيمكم وقائدكم .

تردَّد الجنود لحظة ، فى انتظار أوامر (إيڤانوف) .. ولكنه بدا أشد حَيْرة منهم ، حتى ارتفع صوت (ياكوف) ، الذى بدا يشعر بحاجته للهواء :

— أطيعوه يا رفاق .. أطيعوه بحقِّ الشيطان .

خلَّص هذا الأمر المباشر الجنود من حَيْرتهم ، فألقوا أسلحتهم ، وكأنما يلقون معها عبء الاختيار ..

مائة جندى استسلموا لرجل واحد ..

رجل حطَّم رأس الثعبان ..

نمَّت نبرات صوت (أدهم) عن ارتياحه لما آل إليه الأمر ، وهو يقول فى لهجة آمرة صارمة :

ـــ أريد سيّارة ، وسائقًا ماهرًا .
انفصل أحد الجنود عن رفاقه ، وأسرع إلى سيــــارة (ياكوف) ، فأدار محرّكها ، وتحرّك بها نحو (أدهم) ، الذى قال فى صرامة مماثلة :

ـــ انقلوا الرجل ذا الكاحل الملتوى إلى السيارة .

أسرع جنديّان ينقلان (أندريه) إلى السيارة ، ثم جذب (أدهم) (ياكوف) من عنقه ، وجلس إلى جواره فى المقعد الخلفى ، ثم صاح بصوت سمعه الجميع :

ـــ انطلق إلى الحدود الفنلندية مباشرة أيها السائق .

انطلق السائق بالسيارة ، ولم يكد يبتعد حتى خفّف (أدهم) ضغط ذراعه عن عنق (ياكوف) ، الذى شهق فى قوة ، وأخذ يدلك عنقه فى ألم ، وهو يقول فى صوت متحشرج :

ـــ هل تظن عبور الحدود السوفيتية الفنلندية أمرًا هيّنًا أيها الشيطان ؟.. لقد أخطأت هذه المرّة ، فقد سمعك الجميع تأمر السائق بالانطلاق إلى هناك ، وستجد كل الطرق مسدودة فى وجهك بعد لحظات قصار .

ابتسم (أدهم) فى سخرية ، وقال :

ـــ هل تظن ذلك أيها الرفيق ؟

قال (ياكوف) فى حنق :

ـــ لست أظنه .. أنا متأكد من كل كلمة نطقت بها .

ازدادت ابتسامة (أدهم) سخرية ، واستدار إلى السائق قائلًا :

ـــ قِفْ أيها السائق .

أوقف السائق السيارة بحركة حادة ، جعلت الجميع يندفعون إلى الأمام ، ثم ألصق (أدهم) فوّهة مسدّس (ياكوف) بجانبه ، وقال فى صرامة :

ـــ إنها نهاية الرحلة بالنسبة لك أيها الرفيق (ياكوف) .

شحب وجه (ياكوف) ، وقال :

ـــ هل ستقتلنى ؟

ابتسم (أدهم) وهو يقول فى هدوء :

ـــ لم أعتد قتل الشجعان العباقرة أيها الرفيق .. إننى أطلب منك الهبوط فحسب .

تطلّع إليه (ياكوف) فى دهشة ، ثم أسرع يغادر السيارة ، وتبعه السائق بعد أن أمره (أدهم) بذلك .. وهنا احتلّ (أدهم) مقعد القيادة ، وقال وهو يدير محرّك السيارة :

ـــ إلى اللقاء فى (فنلندا) أيها الرفيق (ياكوف) .

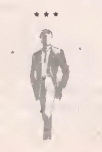
قال (ياكوف) فى غضب :

— لن تطأها قدماك أبداً أيها الشيطان .

أطلق (أدهم) ضحكة ساخرة عالية ، ثم انطلق بالسيارة ، فأسرع (ياكوف) ينتزع جهاز الإرسال الصغير من جيب معطفه ، وصاح فى انفعال :

— الجاسوس ينطلق نحو الحدود الفنلندية .. سُدّوا كل الطرقات .. أطلقوا النار فور رؤيته .. هل تفهمون ؟.. أطلقوا النار فور رؤيته .

* * *



١٣ — المرحلة الأخيرة ..

صاح (أندريه) فى حنق ، وهو يجلس إلى جوار (أدهم) ، فى سيارة (ياكوف) :

— أكان من الضرورى أن تشرح للجميع وُجهتنا ؟.. إنك بذلك تخلق لنا آلاف المشاكل ، فى الطريق الطويل ، من هنا إلى (فنلندا) .

ضحك (أدهم) فى سخرية ، وقال :

— ومن قال إننا سنذهب إلى (فنلندا) أيها الوغد ؟

اتسعت عينا (أندريه) فى ذهول ، وقال :

— ماذا تعنى ؟

أجابه (أدهم) فى هدوء :

— أعنى أن أنظار السوفيت جميعاً ستذهب إلى (فنلندا) ، على حين لن نتخذ نحن هذا الطريق أبداً .

صاح (أندريه) فى ذعر :

— إلى أين نذهب ؟

انحرف (أدهم) فجأة فى طريق جانبى ، وقال فى هدوء عجيب :

ــ إلى (موسكو) أيها الوغد .

* * *

ظلَّ الذهول مرتسمًا على ملامح (أندريه) بأقصى صورة ، حتى عَبَرت السيارة مدخل (موسكو) ، وخفَّف (أدهم) من سرعتها ، وهو يعبُر طرقات المدينة الحمراء ، وهنا هتف (أندريه) :

ــ ألا تخشى أن يوقفونا ؟

أجابه (أدهم) فى هدوء :

ــ ربَّما فعلوا .. ولكن هذه وسيلتنا الوحيدة للوصول إلى هدفنا ، خاصة بكاحلك الملتوى هذا .

بدت من بعيد دوريَّة سوفيتية ، تُوقف السيارات ، للاطلاع على أوراق راكبيها ، فارتجف (أندريه) ، وهو يقول فى توتُّر :

ــ لقد أوقعوا بنا .

انحرف (أدهم) فجأة فى طريق جانبى ، وأوقف السيارة ، ثم هبط منها ، وأسرع يعاون (أندريه) على الهبوط ، ثم حمله من تحت إبطيه ، وأسرع يتحرَّك إلى نهاية الطريق .. وشعر

(أندريه) بآلام مُبرِّحة فى ساقه ، ولكنه أطبق شفتيه ، ولم ينبس بكلمة واحدة ..

بدا الطريق طويلًا ، وهما يقطعانه وسط المارَّة ، كما لو أن أحدهما جندىّ أصيب بجرح ما ، والآخر يعاونه على السير ، حتى أقرب نقطة إسعاف ..

ساعدهما زيُّهما ، والألم الواضح فى ملامح (أندريه) ، على ألَّا يوقفهما أحد ، حتى وصلا إلى شارع واسع .. تنهَّد (أدهم) فى ارتياح ، وتهلَّلت وجهه ابتسامة رائعة ، وهو يقول فى صوت متهدِّج منفعل :

ــ يبدو أننا نجحنا أيها الوغد .

رفع (أندريه) عينيه إلى حيث ينظر (أدهم) ، وارتجف قلبه ارتجافة قوية ، وهو يحدِّق فى العلم الذى يرفرف ويخفق فى قوة ، فوق مبنى أنيق يتوسَّط الشارع ..

كان علم مصر ....

بعثت رؤية السفارة المصرية مزيدًا من القوة فى نفس (أدهم) ، فأسرع الخُطَا نحوها ، حتى أصبح على قيد خطوة واحدة منها ، وهنا سمع صوتًا صارمًا من خلفه يقول فى خشونة :

ــ أوراقكما أيها الرفيقان .

استدار (أدهم) فى هدوء ، فطالعه وجه ضابط سوفيتى ، يقف خلفه جنديان مسلَّحان ..

مضت فترة من الصمت ، و (أدهم) يتبادل النظرات مع الضابط السوفيتى ، حتى قال هذا الأخير فى صرامة :

— ألم تسمعنى أيها الرفيق الجندى ؟.. إننى أطلب أوراقك ، وأوراق زميلك .

كاد (أندريه) يسقط من فرط رعبه ..

لقد فشلت خطَّة الهروب على بعد خطوات .. بل خطوة واحدة من السفارة المصرية ، ولكن (أدهم) لم يرتجف .. بل أجاب فى هدوء :

— لقد سرقت أوراقنا أيها الرفيق الضابط .

سأله الضابط فى دهشة :

— سرقت ؟!.. إن ما تقوله يعرِّضك لعقوبة شديدة أيها الرفيق الجندى .. إن ضياع الأوراق العسكرية جناية خطيرة .

أشار (أدهم) إلى بوابة السفارة المصرية ، وقال :

— لقد سرقها أحد العاملين هنا ، وأصاب زميلى فى كاحله ، وكنا بصدد اللَّحاق به عندما ....

قاطعه الضابط السوفيتى فى غضب :

— أحد العاملين هنا ؟ ويلٌ لهم !!

ثم تحرَّك فى خطوات سريعة إلى فناء السفارة ، ولحق به (أدهم) وهو يحمل (أندريه) ، وخلفهما الجنديان المسلحان ..

ولم يكد هذا الفريق يتوسَّط فناء السفارة المصرية ، حتى ابتسم (أدهم) ، وقال فى سخرية ، وبلهجة تنمّ عن ارتياحه .

— مهلاً أيها الرفيق الضابط .. لا سلطة لك فى هذا الفناء .. إنه أرض مصرية خالصة ، طبقًا لكل الاتفاقيات الدولية (*) .

(*) ينص القانون الدولى على أن الأرض الممنوحة لسفارة أى دولة ، فى دولة أخرى تعد أرضًا تابعة لسفارة الدولة المستضافة ، ولا سلطان فيها للدولة المضيفة .

تطلّع الضابط إليه فى دهشة ، وقال فى غضب :

— ماذا تقول أيها الجندى ؟

قال (أدهم) فى صرامة :

— لست جنديًّا أيها الرفيق الضابط .. أنا مواطن مصرى ، وأقف الآن على أرض تابعة لدولتى ، ولن يمكنك اعتقالى ، حتى بتهمة ارتداء زىّ عسكرى .

احتقن وجه الضابط السوفيتى ، وفتح فمه لينطق بعبارة ساخطة ، ولكنه عاد يطبق شفتيه ، وكأنه لايريد لتابعيه أن يشهدا مزيدًا من السخرية منه ، وظلّ يحدّق فى وجه (أدهم) طويلًا ثم أشار إلى الجنديّين ، وقال فى حنق :

— هيّا بنا يا رفاق .. اتركا الرجلين يحلّان مشكلتهما بنفسيهما .

وغادر السفارة فى خطوات سريعة محنقة ، تتابعه ابتسامة (أدهم) ، التى تفيض ظفرًا وسخرية ..

كان بوضع قدميه داخل السفارة المصرية ، قد وقع وثيقة انتصاره هذه المرّة ، وأضاف نصرًا جديدًا إلى ملف (رجل المستحيل) ..

* * *

١٤ — ختام الجزء الثانى ..

جلس (قدرى) البدين فى حجرته شاردًا ، يداعب قطعة غير متناسقة من الصلب ، كان يعدّ منها تحفة فريدة من تحفه المزوّرة ، التى يملأ بها حقائب رجال المخابرات المصرية ، والتى كثيرًا ما تعاونهم فى مهام شديدة الصعوبة ، عندما اقتحم المقدّم (حازم عبد الله) حجرته ، وصاح به فى مرح :

— كيف حالك أيها البدين ؟.. ماذا أصابك فى الآونة الأخيرة ؟.. إنك تفقد الكثير من وزنك كل يوم .

رفع (قدرى) إليه عينين دامعتين ، وقال :

— لا يمكننى أن أنسى (أدهم) يا (حازم) .. لقد كان لى نعم الرفيق ، وخير صديق .

هتف (حازم) فى مرح :

— هذا ما أتيت إليك بشأنه يا صديقى البدين .. لقد وصلت الآن برقية بالشفرة إلى مكتب المدير ، من سفارتنا فى (موسكو) .. خمّن أى توقيع تحمل ؟

اتسعت عينا (قدرى) ، وتصلَّبت أطرافه ، وارتعدت شفتاه ، وتهدَّج صوته وهو يقول فى انفعال :

— هل .. هل تقصد ؟

صاح (حازم) فى سعادة :

— إنه هو يا رجل .. إنه (أدهم صبرى) .

ظلَّ (قدرى) يحدِّق فى وجه (حازم) ، وكأنه لا يصدِّق ما يسمعه .. ثم أجهش فجأة بالبكاء ، وتوقَّف عنه بغتة أيضًا ، وهو يسأل (حازم) فى انفعال :

— أين البرقية ؟

أجابه (حازم) فى عاطفة :

— فى مكتب المدير و ....

لم يكد ينطق بنصف العبارة ، حتى اندفع (قدرى) برشاقة لا تناسب حجمه الضخم ، وأسرع يقتحم مكتب مدير المخابرات ، الذى التفت إليه فى دهشة ، فتلعثم (قدرى) ، وارتبك ، وقال :

— معذرة يا سيِّدى .. لقد .. لقد ....

فهم مدير المخابرات الأمر فى سرعة ، فابتسم وقال :

— تقدَّم يا (قدرى) .. هاك برقية (أدهم) ..

عادت الدموع تتسال فى هدوء ، من عينى (قدرى) ، وهو يلتقط البرقية فى لهفة ويقرؤها فى استغراق ، ثم رفع عينيه الدامعتين إلى مدير المخابرات ، وغمغم فى صوت متحشرج :

— إذن فقد نجا .. حمدًا لله .. حمدًا لله .

حرَّك مدير المخابرات كفه ، على نحو يوحى بسعادته ، وقال :

— هذا الشاب رائع .. إنه يقول فى برقيته إن لديه معلومات مؤكدة ، عن نجاة (منى) أيضًا ، ولكنه لم يلتق بها بعد .

قال (قدرى) فى ثقة :

— لن يعود إلَّا بها يا سيِّدى .

أومأ مدير المخابرات برأسه موافقًا ، وقال وهو يمطُّ شفتيه :

— هذا ما توقَّعناه جميعًا .

ثم أردف بعد لحظة من الصمت :

— لقد فكَّرنا فى البداية فى مطالبته بالعودة ، ولكننا رأينا أنه سيخالف أوامرنا لو فعلنا ، ما دام لم يستعد زميلته بعد ، لذا فقد تركنا له حرِّية التصرُّف .

ابتسم (قدرى) فى سعادة ، وهو يقول :

— حسنًا فعلتم يا سيِّدى .

هزَّ مدير المخابرات كتفيه ، وقال مبتسمًا :

ــ هذا هو الأسلوب الوحيد للتعامل مع (رجل المستحيل) يا (قدرى) .

* * *

جلس (أدهم) شاردًا ، يتطلّع من خلف نافذة مكتب السفير المصرى ، إلى مدينة (موسكو) ، حتى أنه لم يشعر باقتراب السفير ، إلّا عندما قال فى هدوء :

ــ لقد رحل (أندريه) إلى القاهرة ، بصحبة الملحق العسكرى هنا ، وبجواز سفر مصرى ديلوماسى ، حتى لا يعترضه السوفيت .

غمغم (أدهم) :

ــ لقد نال هذا الحقير أكثر مما يستحق .

مطّ السفير شفتيه ، وقال :

ــ لقد تحمّلت أنت من أجله الكثير من متاعب السوفيت و ...

قاطعه (أدهم) فى هدوء :

ــ إننى لا أحقد على السوفيت يا سيّدى ، لقد كانوا يؤدون واجبهم نحو وطنهم ، وهذا يزيد من إعجابى بهم .. فلو أن الأمور انعكست ، لفعلنا ما هو أكثر من ذلك فى مصر ، ضد أى جاسوس أجنبى .. وصدّقنى أننى أشعر بالاستياء لما سبّبته لهم من قلق .

ضحك السفير ، وهو يقول :

ــ قلق ؟!.. بل قُل مَرَارَة يا صديقى .

غمغم (أدهم) دون أن يبتسم :

ــ هذا يزيد من أسفى يا سيّدى السفير .

ساد الصمت بينهما لحظة ، ثم غمغم السفير :

ــ أما زلت مصرًّا على عدم العودة إلى القاهرة ؟

أجابه (أدهم) فى هدوء :

ــ ليس قبل أن أستعيد (منى) يا سيّدى .

ثم سرح ببصره فى سماء (موسكو) ، وهو يردف :

ــ إنها ليست مجرّد زميلة يا سيّدى السفير ، إنها تحتلّ فى حياتى مكانًا خاصًّا متميّزًا .

أومأ السفير برأسه ، وقال فى هدوء :

ــ أعلم ذلك أيها العقيد .

ثم أردف فى اهتمام :

ــ ولكن ما من دليل واحد لدينا ، على وجودها فى (موسكو) ، أو على استمرار بقائها على قيد الحياة .

أشار (أدهم) إلى (موسكو) عَبْر النافذة الزجاجية ، وقال :

ــ قلبى يحدّثنى أنها هنا يا سيّدى ، وسأبعد هذه المرّة .

تطلّع إليه السفير فى إعجاب ، وهمس :

ــ أنت رجل رائع يا (أدهم) .

ابتسم (أدهم) فى هدوء ، وقال فى حرارة :

ــ بل قل مصر هى الرائعة يا سيّدى .. ولاتنس أن كل ما سيبقى فى أذهان السوفيت ، هو أن الرجل الوحيد ، الذى نجح فى الفرار من معتقلهم الأسطورى كان مصريًّا .. وأن الوحيد الذى نجح فى اجتياز قضبانهم الجليدية ، كان يحمل اسم مصر .

* * *

[انتهى الجزء الثانى]

رقم الإيداع : ٣٦١٩